سلسلة المعارف الإسلامية

مَنارُ الهُدى

دروس تمهيدية في المعارف الإسلاميّة







الكتاب:	منارُ الهُدى
نشر:	جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
الطبعة الأولى:	2014م - 1435 هـ



الفهرس

المقدّمة

منذ أن يولد الإنسان يظلّ متعطّشاً يبحث عن مفقود، فعندما تتفتّق مواهبه يتطلّع بحب عميق للجمال، وهكذا حينما تتفاعل في نفسه الأحاسيس الجيّاشة شاباً، أو حينما يتعلّم أو يتنعّم أو يتألّم فإنّه يظلّ يبحث عن شيء ضائع لا يعرف كيف يهتدي إليه، ويتفقّد محبوباً لا يدري كيف الوصول إليه، فيبحث عن حبيب مفقود ليس بغائب، وعن غائب هو شاهد وفوق كل شاهد وهو اللّه - سبحانه وتعالى - الذي هو أمنية الإنسان والحلم الذي ينشده. وفي أكثر الأحيان يُضلّ الإنسان الطريق إليه - تعالى -، والقليل من الناس هم الذين يحظون بمعرفة الحبيب، ففي التعرّف عليه تكمن السعادة الحقيقية والحبّ العميق الذي يبعث في الفرد عشق الشهادة واختيار الموت، رغم أنّ الموت ليس بالشيء العادي عند الإنسان.

ترى عمّ يبحث الإنسان؟ وماذا يريد من حياته؟ وإلى ما يطمح؟

فتراه عندما يجوع يزعم أنّ سعادته في كسرة خبز يسدّ بها رمقه، فإذا ما نالها ظنّ أنّ هناءه في شربة ماء تطفئ ظمأه، ولكنّه في الحقيقة ما يزال بعيداً عن هدفه، فالطريق وعر طويل. ويظلّ لا يدري عم يبحث، عن الراحة؟ إنّه ينام، فإذا استيقظ وجد

نفسه ما يزال باحثاً، عن الرئاسة؟ كلا، فهو إذا أصبح رئيساً هانت الرئاسة عنده...

لهذا يبقى الطريق إلى السعادة الحقيقية واحداً، وهو في أن يصل قلب الإنسان إلى ربّ القلوب، وحبيب النفوس، وأنيس العارفين، وحبيب قلوب الصادقين، فعندئذٍ يجد القلب منيته، ويرضى إذ يجد بغيته.

يقدّم مركز نون للتأليف والترجمة هذا الكتاب «**منار الهدى**» ليشكّل خطوةً هامّةً على طريق المعرفة للوصول إلى الارتباط القلبي والعملي بالله تعالى.

وهو يتضمّن على صفحاته دروساً تمهيدية في ثقافة المقاومة والمعارف والثقافة الإسلامية، وقد قُسِّمت ثلاثة أقسام، القسم الأول يضمّ ستّة عشر درساَ في تاريخ المقاومة والتشيّع، ويضمّ القسم الثاني سبعة دروس في سيرة الإمام علي عليه السلام، ويضمُّ القسم الثالث ثلاثين درساً في الثقافة والمفاهيم والأخلاق الإسلامية.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين

مركز نون للتأليف والترجمة

القسم الأوّل



التشيّع والمقاومة

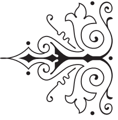
دروس في تاريخ المقاومة عند شيعة لبنان



1



الدرس الأوّل



تاريخ التشيّع في لبنان (1) جبل عامل



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 -يعرف تاريخ الوجود الشيعي في بلاد الشام.

2 -يعرف تاريخ الشيعة في جبل عامل.

3 -يدرك الخصائص الفكرية والسياسية في جبل عامل.

التشيّع في بلاد الشام

يعود الوجود الشيعيّ في بلاد الشام إلى ما قبل القرن العاشر الميلاديّ، حيث يستفاد من مجموعة من الأدلّة والقرائن التاريخية وجود الشيعة في هذه البلاد منذ القدم، فيذكر المؤرّخون أنّ ناصر خسرو - الرّحّالة الإيرانيّ - قد مرّ حدود القرن العاشر الميلادي في هذه البلاد، فذكر أنّ سكّانها من الشيعة. وفي سنة 1184م بدأ الرحّالة إبن جبير رحلته التي وصل بها إلى دمشق، وذكر أنّ الشيعة في هذه البلاد عظيمو الشأن؛ قد نشروا عقيدتهم في كلّ مكان. هذا ويذكر المؤرِّخون أنّ قسماً من شيعة الشام كان يعبِّر بوضوح عن معارضة سياسية للحكّام العباسيين في بغداد.

أمّا في أوائل العصور الوسطى[1] فكان سكّان لبنان من الشيعة، ما خلا بعض الجيوب المسيحية في الأودية الشمالية. وكانت حلب مركزاً للعلوم الشيعية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، رغم أنّ عدد الشيعة حينها كان في تناقص نتيجة السياسة التي اتّبعتها دولة المماليك - التي قامت على أنقاض الدولة الأيوبية - في محاربة الشيعة حيث اعتبروهم من الفرق الخارجة على الإسلام بناءً لفتوى ابن تيمية، فكانت مذابح كسروان التي سُمّيت «**بالفتوح**»[2]. ما أدّى - بعد هذه المذابح المروّعة - إلى أن يلتجىء من نجا من الشيعة إلى منطقتي بعلبك وجزّين، وبعدها أخذ الموارنة يتكاثرون في المنطقة التي أضحت شبه خالية من سكّانها (الشيعة).

ومع هذا فإنّ الجيوب الشيعية القليلة في بلاد الشام، أثناء الحكم العثمانيّ، احتَوت

---

(1) **العصور للوسطى**: يطلق على الفترة الممتدة من القرن العاشر وحتى عام 1517 ميلادي.

(2) سيأتي تفصيل ذلك في الدروس اللاحقة.

أسراً كبيرة من الأشراف، واستمرّت إلى يومنا هذا. إلا أنّه في المقابل انقطع التقليد القائم على التعليم الدينيّ الشيعيّ، وانقطعت سلالات العلماء، في معظم تلك المناطق.

تسمية جبل عامل

جبل عامل أو جبل الجليل أو جبل الخليل أو بلاد بشارة، تلك هي الأسماء المتعدّدة التي عُرف بها قديماً جبل عامل.

يجمع عدد كبير من المؤرّخين أنّ هذه التسمية أتت نسبةً لقبيلة عاملة بن سبأ اليمنيّة؛ هذه القبيلة التي هاجرت من اليمن إلى أطراف الشام بعد حادثة سيل العرم وانهيار سدّ مأرب.

وذكر المؤرّخون أيضاً أنّ عاملة هاجرت إلى بلاد الشام، وإلى الهضاب الواطئة المتصلة بشاطئ البحر المتوسّط في أواخر القرن الرابع... ويظهر من المصادر والدراسات التاريخية أنّ قبيلة عاملة حتى زمن متأخِّر لم تُلحق منطقة معنية باسمها، ولهذا كانت صفة عاملي في ذلك الوقت تعني القبيلة وليس المنطقة ولكنّه من سكان تلك المنطقة أعني بيسان في فلسطين، أو من سكان حمص أو من سكان هذه الجبال الواطئة الممتدة من تخوم وادي التيم إلى سواحل البحار...

كما عُرفت هذه المنطقة ببلاد بشارة نسبة إلى أحد الزعماء الذي تعدّدت الآراء حول نسبه، وذكر بعض المؤرّخين أنّه الأمير بشر بن معن، وقال آخرون إنّه بشارة بن مقبل القحطاني، لكنّ المشهور والأقرب إلى الصحّة أنّه الأمير حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن أحمد بن سلامة العاملي[1].

وقد عرف هذا الجبل ببلاد (المتاولة)، لكون معظم سكّانه من (المتاولة) حسب التسمية المعروفة في لبنان؛ أي الشيعة[2] وهذا اللقب وهذه اللفظة هي جمع لكلمة

(1) علي الزين: المرجع السابق، ص166.

(2) احمد رضا: المتاولة و الشيعة في جبل عامل ،مجلة العرفان المجلد الثاني ج2،ص241.

متوالي، مشتقّ على غير قياس من تولّى؛ أي اتخذ وليّاً ومتبوعاً، من ولائهم لأهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام الذي هو الركن في مذهب الشيعة، أو مشتقّ على القياس من توالى؛ أي تتابع، من تتابعهم واسترسالهم خلفاً عن سلف في موالاة آل البيت عليهم السلام [1].

تاريخ الشيعة في جبل عامل

يتّفق المؤرّخون على انتساب العامليين إلى قبيلة عاملة بن سبأ، يقول آل صفا: «**وسكّانه (جبل عامل) عرب خلّص بنسبهم، ولغتهم وعاداتهم متحدّرون من عاملة بن سبأ بن يشجب بن قحطان، وهي قبيلة هاجرت من اليمن إلى أطراف الشام قبل الميلاد بثلاثمئة سنة على وجه التقريب بعد حادثة سيل العرم، وانهيار سد مأرب وضياع مملكة سبأ المعروفة في التاريخ**»[2]. وعن عروبة سكّان جبل عامل يقول السيد محسن الأمين: «**عريقون في العروبة، ولهم من العادات ما يكفي لتوضيح نسبهم العربي، وأمّا لغتهم فهي العربية، وألفاظها أقرب إلى الفصحى من كلّ لفظ**»[3].

وكانوا من معتنقي الدين الإسلاميّ بعد الفتح الإسلاميّ لبلاد الشام، وتمازجوا مع غيرهم من الوافدين، من عرب وعجم. ويذكر المؤرّخون أنّ ولاء شيعة جبل عامل للإمام عليّ عليه السلام قديم، ويعود ذلك - حسبما يذكره العلماء - إلى الفترة التي نزل فيها الصحابيّ الجليل أبو ذرّ الغفاريّ في بلاد الشام. فمنذ ذلك الزمان بدأت بذرة الموالاة لعليّ عليه السلام في تلك البلاد وما زالت حتّى يومنا هذا.

وقد أشار السيد محسن الأمين إلى هذه الرابطة الوثيقة لعاملة مع الصحابي أبي ذر الغفاري، الذي نفاه معاوية إلى جبل عامل، ولا يزال هناك مسجدان يعرفان باسمه، الأوّل في ميس الجبل، والثاني في بلدة الصرفند[4].

---

(1) علي الزين: المرجع السابق، ص166.

(2) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ، بيروت دار متن اللغة (د.ت) ، ص25.

(3) السيد محسن الأمين:خطط جبل عامل ص53.

(4) بتصرّف: السيد محسن الأمين: خطط جبل عامل ص65و66.

قد مرّ في طرفه ناصر خسرو - الرّحالة الفارسي المعروف - سنة 437 هجري (1020)م. فقال عن صور: «**إنّ أكثر أهلها شيعة إمامية، ومن بلدانه تبنين وهونين وقدس والشقيف، وأكبر مدنه صيدا ثمّ صور، وأكبر قراه النبطية وبنت جبيل والخيام**»[1].

وقد عاش أبو ذرّ في الشام مدّة طويلة، ربّما نافت على العشر أو الأربع عشرة سنة، استطاع خلالها نشر مذهب الحق في الموالاة لعليّ عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام.

واستمرّ المذهب الإماميّ سائداً في جبل عامل، كما يظهر من العديد من المسائل الشرعيّة التي كانت ترسل إلى مراجع الإماميّة. إذ إنّ هناك أكثر من تصنيف يحمل اسم «**جواب المسألة الواردة من صيدا**» أو «**جوابات المسائل الصيداوية**».

الأهميّة التاريخية

اكتسب جبل عامل أهمّيته التاريخية من خلال عدّة أمور، هي:

كان مهداً لدعوات الأنبياء.

قربه واتّصاله بفلسطين.

خروج العلماء العظام منه.

الأحداث الجسام التي حدثت على أراضيه.

سكّانه الأتقياء والأذكياء والأشدّاء في الحروب.

تقدّمهم في التشيّع والولاء لأهل بيت النبوة عليهم السلام.

ويضاف إلى ذلك ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام؛ حيث وُجد بخطّ الشهيد الأوّل كما ذكر الحرّ العامليّ في كتاب أمل الآمل، نقلاً عن ابن بابويه، عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئِل كيف يكون حال الناس في حال قيام القائم عجل الله فرجه الشريف وفي حال

(1) السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة ج1 ق2 ص240 .

غيبته؟ ومَن أولياؤه وشيعته؟ ومن المصابون منهم، الممتثلون أمر أئمّتهم والمقتفون لأثارهم والآخذون بأقوالهم؟ قال عليه السلام: «**بلدة الشام**»، قيل: يا ابن رسول الله إنّ أعمال الشام متّسعة! قال: «**بلدة بأعمال الشقيف أرنون**»، وبيوت وربوع تُعرف بسواحل البحار وأوطئة الجبال، قيل: يا ابن رسول الله، هؤلاء شيعتكم؟ قال عليه السلام: «**هؤلاء شيعتنا حقاً، وهم أنصارنا وإخواننا والمواسون لغريبنا والحافظون لسرّنا، والليّنة قلوبهم لنا، والقاسية قلوبهم على أعدائنا، وهم كسكّان السفينة في حال غيبتنا، تمحل البلاد دون بلادهم، ولا يصابون بالصواعق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويعرفون حقوق الله، ويساوون بين إخوانهم، أولئك المرحومون، المغفور لحيّهم وميّتهم، وذكرهم وأنثاهم، ولأسودهم وأبيضهم، وحرّهم وعبدهم، وإنّ فيهم رجالاً ينتظرون، والله يحبّ المنتظرين**»[1].

كثرة قبور ومشاهد الأنبياء والأولياء والصالحين والعلماء المنتشرة في قراه وهضابه منذ أمد طويل.

انتشار الشيعة في السواحل والجبال

كانت جبال لبنان الحصينة منذ زمن بعيد ملجأً للحركات المعارضة للسلطة، ولذا نجد بأنّ الجماعات الشيعيّة التي اضّطُهدت ولُوحِقت في مختلف العهود والأقطار، كان لديها سبب كافٍ للهجرة ناجية بنفسها إلى مكان غامر وحصين كجبال لبنان. ومن ذلك وجود الشيعة في جبال «**الضنيّة**» التي كانت تعرف قديماً بـ«**جبال الظنين**» في أعالي شماليّ «**لبنان**» التي يرى بعض المؤرّخين أنّها أخذت اسمها من فرقة شيعيّة عمّرتها في الماضي، وكذلك وجودهم التاريخيّ في الجبال المجاورة لمنطقة «**زغرتا**» حيث لا تزال أعقابهم حتّى اليوم.

(1) أمل الآمل، ص 15 – 16.

كما أنّه لا شكّ في أنّ الشيعة كانوا منتشرين في السواحل اللبنانية، أو في ثلاثة من حواضرها على الأقلّ قبل قيام الدولة الفاطمية بزمن طويل (قامت: 358هـ/ 968م). وكان أهل طبريا والقدس وأكثر عمّان شيعة.

والحقّ أنّ التشيّع الذي ازدهر، وقارب أن يستكمل شخصيّته، في الساحل اللبناني خصوصاً في طرابلس، قد ضُرب على يد الصليبيين دون سواهم، ومن عبث الزمان أنّ المماليك الذين دمّروا الإمارات الصليبية، التي قامت على أنقاض الشيعة، لم يكن لهم همّ بعد ذلك، إلا تجريد الحملات على المنطقة الوحيدة التي استعصت في تلك البقاع على الصليبيين؛ أعني بها جبال «**كسروان**»، فجرّوا عليها الحملة تلوَ الحملة، إلى أن دخلوها عام 1305م فخرّبوها، وقتلوا أهلها دون تمييز وقطعوا كرومها وبساتينها، وأحرقوا غاباتها، الأمر الذي أثار استنكار السلطان في مصر. نتيجة تلك التطورات السياسية جلا الشيعة عن شمال لبنان ساحلاً وجبلاً وعن كسروان، ولم يبقَ منهم إلّا الذين رابطوا في قراهم البعيدة. وظلّ جبل عامل والجبال التي تتاخمه شرقاً، جبل الشيعة الإمامية، وكذلك منطقة بعلبك والبقاع البعلبكي.

ومن حسن حظّ جبل عامل أنّ العمليات العسكرية أيّام الصليبيين كانت تجري على أطرافه وحافّاته. وهذا أمر يمكن تصوّره من توزيع القلاع والحصون التي أقيمت آنذاك، وكانت بمثابة مراكز حربية في بانياس وهونين وتبنين وشقيف أرنون. وبعد أن استعاد صلاح الدين قلعة هونين من أيدي الصليبيين في السنة 1188م، ولّى على المنطقة أميراً محلّياً، هو حسام الدين بشارة بن أسد الدين العامليّ. وكان من حسن أثره وجميل سيرته، أن حملت المنطقة اسمه، فصارت تُعرف بـ «**بلاد بشارة**» وظلّت سلالته في الحكم حتّى الفتح العثمانيّ، وكانوا شيعة. وقد أتاح النظام الإقطاعيّ المستقلّ إلى حدّ ما، لأهل جبل عامل أن يعيشوا في جبالهم مستقلّين استقلالاً مادّياً وثقافياً معاً.

الخصوصية الفكرية والسياسية

قامت في جبل عامل والمناطق المجاورة له من سهل البقاع مراكز علمية يمكن القول إنّها كانت مشروعاً سياسياً، أنجزته تلك المراكز العلمية، متمثّلة بالفقهاء، ثمّ حملوه مهاجرين، إلى الجوار العربيّ القريب والبعيد وإلى أقطار العالم الإسلاميّ البعيدة. وفي أعماق أسباب الهجرة تكمن الخصوصية الفكرية والسياسية معاً. ويمكننا أن نسمّي هذه الخصوصية بالمسألة الأولى. أمّا المسألة الثانية: فهي الأرضيّة التي تفاعلت مع الأفكار أو المشروع الذي حمله المهاجرون معهم بكامل عناصره الثقافية والاجتماعية أيضاً.

أضف إلى ذلك امتياز سكّانه بالذكاء واعتدال القرائح، ولعلّ هذا ناشئ عن الأمر الأوّل لتأثير الإقليم في الطباع واعتدال الهواء في اعتدالها. ويشهد بذلك أنّه ما حلّ العامليون في قطر من الأقطار إلا و تعلّموا لغة أهله بأقرب وقت، وتكّلموا بلهجتهم بحيث لا يمتازون عنهم، ولا يظنّهم السامع غرباء، بل يخالهم من أهل تلك البلاد[1].

وكَثُر من نبغ فيه من العلماء، فبعد بدايات الفتح الإسلامي بمدّة نبغ في العامليين الشعراء و العلماء والقادة والأمراء. فلقد نبغ فيه من القرن السادس الهجري أو قبله إلى اليوم علماء كبار في كلّ فنّ وعلم، هذا فضلاً عن الشعراء والأدباء والكتّاب ...، وقد كثرت مؤلّفاتهم في كلّ فنّ، حتى أن أفران عكّا بقيت تشتعل منها ستة أيام في حادثة الجزار المشؤومة، ولم ينجُ منها إلا ما أخذه أهل فلسطين من نفائسها، وما حمله الهاربون إلى بلاد غير بلادهم. ولم ينقطع منه العلم من ذلك الحين إلى وقتنا هذا[2].

وحسبك في فضل جبل عامل أن يجتمع في جنازة سبعين مجتهداً، (في عصر الشهيد الثاني) والعلماء هم ورثة الأنبياء. وحسبك في فضل جبل عامل أن يضع صاحب أمل الآمل كتابه في علماء جبل عامل، ويعترف بعدم الاستقصاء، وأن يقصده الطلّاب والعلماء من العراق وإيران وأن يبلغ عدد طلاب مدرسة المحقّق الميسي أربعمئة طالب[3].

---

(1) خطط جبل عامل ص72.
(2) خطط جبل عامل ص 73.
(3) المرجع السابق ص 74.

المفاهيم الرئيسة:

1 - يعود الوجود الشيعيّ في بلاد الشام إلى ما قبل القرن العاشر الميلاديّ بحسب الأدلة والقرائن التاريخية.

2 - في أوائل العصور الوسطى كان سكّان لبنان من الشيعة، ما خلا الجيوب المسيحية في الأودية الشمالية. وقد ظلّت حلب مركزاً للعلوم الشيعية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

3 - إنّ الجيوب الشيعية القليلة في بلاد الشام أثناء الحكم العثمانيّ احتوت أُسَراً كبيرة من الأشراف، واستمرّت إلى يومنا هذا.

4 - يتّفق المؤرّخون على انتساب العامليين إلى قبيلة عاملة بن سبأ، التي هاجرت من اليمن إلى أطراف الشام قبل الميلاد بثلاثمئة سنة على وجه التقريب.

5 - عاش أبو ذرّ في الشام مدّة طويلة، ربما نافت على العشر أو الأربع عشرة سنة، استطاع خلالها نشر مذهبه في الموالاة لعليّ عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام.

6 - سُمّي جبل عامل أو عاملة في الكتب القديمة، وأطلق عليه (بلاد بشارة)، ودُعي بجبل الخيل وجبل الخليل وجبل الجليل في العهود السالفة.

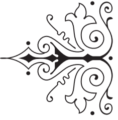
7 - اكتسب جبل عامل أهمّيته التاريخية من خلال: أنّه كان مهداً لدعوات الأنبياء، قربه واتّصاله بفلسطين، وخروج العلماء العظام منه.

8 - لا ريب أنّ الجماعات الشيعيّة التي اضطهدت ولوحقت في مختلف العهود والأقطار، كان لديها سبب كافٍ للهجرة، ناجية بنفسها إلى مكان غامر وحصين كجبال لبنان.

2



الدرس الثاني



تاريخ التشيّع في لبنان (2) بعلبك



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يدرك الأهمّية التاريخية لوجود التشيّع في بعلبك.

2 - يعرف تاريخ الوجود الشيعي في بعلبك.

3 - يعرف دور ابن مِلّي البعلبكي في الدفاع عن الشيعة.

تاريخ الوجود الشيعي في بعلبك

لم يأتِ الشيعة إلى منطقة بعلبك في فترة تاريخيّة واحدة ولا من مكان واحد، بل يمكن الحديث عن فترات زمنية متفرّقة، وأمكنة متعدّدة، ويمكن تصنيف ما ورد في الروايات والدراسات التاريخية في تاريخ الوجود الشيعي في بعلبك إلى قسمين:

الأول: ما ترشدنا إليه بعض المصادر التاريخية، أنّ تاريخ الوجود الشيعي في بعلبك يعود إلى القرن الأول الهجري، بحسب بعض التحقيقات العلمية التاريخية[1].

الثاني: ما تدلّ عليه الكثير من الدراسات والتحقيقات العلمية ولعلّه القول الأشهر، حيث تعتبر أنّ شيعة بعلبك قد هاجروا إليها من مناطق جبيل وكسروان في جبل لبنان، ومن الجبال المجاورة، وهي السفوح المطلّة على السهل والمحاذية لسلسلة الجبال السوريّة.

تاريخ الوجود الشيعي في بعلبك:

يذهب هذا القول إلى أنّ الوجود الشيعي في بعلبك يعود إلى القرن الأول الهجري، وتفصيل القضية كما يذكر الشيخ د.جعفر المهاجر[2]: إنّه في وقتٍ ما من العقد السادس من القرن الأوّل الهجري/ العقد التاسع من القرن السابع الميلادي هبط أولئك المهاجرون من همدان وعبد القيس، القادمون من «**الكوفة**»، أو بعضهم، أرض

---

(1) يراجع: المهاجر. ش.جعفر، شيعة لبنان والمنطلق الحقيقي لتاريخه، ص35 وما بعد، دار بهاء الدين العاملي للنشر والتوزيع، بعلبك، ط. أولى 2013.

(2) المهاجر. ش.جعفر، شيعة لبنان والمنطلق الحقيقي لتاريخه، ص35 وما بعد، دار بهاء الدين العاملي للنشر والتوزيع، بعلبك، ط. أولى 2013.

«**لبنان**» قسمٌ منهم نزل أطراف «**بعلبك**»، والثاني نزل الهضاب المشرفة والمجاورة لمدينة «**طرابلس**».

ويستند هذا القول على مجموعة قرائن هامة تتمحور حول نص تاريخي يعود إلى القرن التاسع الميلادي يقول فيه: «**إنّ بعلبك قومها من الفرس، وفي أطرافها قوم من اليمن**»[1].

وهذه بعض القرائن التي يستند عليها هذا القول:

الأولى: ورد في عبارته في النص: «**وفي أطرافها [يعني بعلبك] قوم من اليمن**» ومن الواضح أنّ هذه العبارة تشير إلى أساس وجود الشيعة في المنطقة، خلافاً لكلّ تهيّؤاتها الذاتيّة.

والعبارة هي لابن واضح اليعقوبي (ح: 292هـ/ 905م) في كتابه (البلدان)[2]. ونحن نأخذ من نصّه النادر إجمالاً أنّه في أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كان سكّان أطراف «**بعلبك**» من أهل «**اليمن**». والطرف من الشيء أو الجسم ما يكون متّصلاً به دون أن يكون منه؛ أي إنّ «**أطراف بعلبك**» ما ليس من جسم المدينة، ولكنّه من ضواحيها أو جوارها. وفي هذا إشارة إلى أنّهم لم ينزلوا المدينة.

الثانية: قوله: «**قومٌ من اليمن**» نصٌّ واضحٌ أيضاً، ولكنّه عامٌّ غير محدّد للمعنيٍّ به، ويوجد قرينة هامّة تساعدنا على معرفة أنّ هؤلاء القوم هم من الشيعة الوافدين، وهي أنّ أحد أبواب مدينة «**بعلبك**» كان يحمل اسم «**باب همدان**» وقد ورد ذكره كثيراً في المصادر. هذا الباب كان بالتحديد جنوب المدينة، حيث اليوم وكان دائماً متنزّه «**رأس العين**» المعروف، الذي يسمّى في بعض المصادر «**الميدان الأخضر**» «**في الميدان الأخضر، خارج باب همدان ببعلبك**».

---

(1) ابن واضح اليعقوبي، البلدان، نقلاً عن: جعفر المهاجر: التأسيس لتاريخ الشيعة (بيروت: دار الملاك، 1992م)، الصفحة 117.

(2) اليعقوبي بلدانيٌّ ثَبْتٌ، المعروف بين أهل البحث أنّه من كبار العارفين في زمانه بأقطار «الشام» وبلدانه وعمّارها، وأنّه لا يصدر فيما يقوله إلا عن معرفة مباشرة.

واسم هذا الباب - كما يُفهم من القرائن- قرينة على أنّه كان يفضي إلى حيث يقيم تجمّعٌ سكّانيٌّ من بني همدان. وأنّ هذا التجمّع كان من كثرة العدد بحيث كان الأبرز في المكان الذي يسامت ذلك الباب، بحيث أطلق عليه الناس اسمه المنسوب إلى همدان.

إذاً، كانت هناك منازل همدان في «**أطراف بعلبك**»، التي استدعت تسمية باب المدينة المؤدّي إليها باسمهم. واحتفظ الباب باسمه هذا حتى أوائل القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد على الأقلّ، ثمّ ضاع ونسي مع كرّ الأيام.

لذا فقوله في النص من اليمن، يعني هم أنفسهم الذين سكن بعضهم في أطراف المدينة، ويعود أصلهم إلى قبيلة همدان[1] اليمنيّة، وهم من الشيعة. ذلك أنّ همدان كانت ديارهم في اليمن، ولمّا جاء الإسلام تفرّقوا فرحل من رحل، وبقي من بقي. وأهل همدان شيعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]، تفرّقت من اليمن، ونزل بعضها في بلاد الشام، ونالت بعلبك نصيباً من حركة هذا النزوح، وسكنت فيها، حتى سُمّي أحد أبوابها باسم باب همدان نسبة إلى أهلها، وهو الباب الذي ذكره ابن عساكر في تهذيب تاريخ ابن عساكر بقوله: «**في الميدان الأخضر خارج باب همدان بعلبك**»[3] نسبةً إلى هويّة القاطنين في تلك الجهة من المدينة.

(1) **همْدان**: قبيلةٌ يمانيّة. ديارُها الأصليّةُ شرقُ «اليمن»؛ أي «حضرموت» وبظهورِ أمرِ الإسلام بايَنَ شطرٌ كبير منها برابعَه، وتفرّق في الرُّقعة الإسلامية الآخذة في التوسّع. وكانت «الكوفة» مركزَ التّجمّع الرئيس لهذه القبيلة خارج «اليمن». بحيث إنّه لدى تمصيرها فازت همدانُ بسُبع المدينة الجديدة. ومن المعلوم المشهور أنّ صلةً متينةً جداً قامت بين همدان والإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ. وأنّ هذه الصّلة تعود إلى تاريخ مُبكّر. حيث النبي صلوات الله عليهِ وآله بعث ابن عمّه إلى «اليمن»، يدعو أهلها إلى الإسلام؛ فأسلمت همدانُ على يده. وأنّه أقام بينهم مدّة سنة تقريباً، فتفقّهوا في الدين عليه. هذا، بالإضافة إلى شخصية الإمام المؤثّرة، فقد بنى وشيجةً خاصّةً لبني همدان معه. فكانت عمادَ عسكره في «صفين»، وكان منها قوّاتُ النُّخبة لديه المسمّاة (شرطة الخميس). أصابت همدانُ فترتها الذهبيّة مع ارتفاع شأن «الكوفة»، بعد أن اتّخذها الإمام عاصمةً له. في تلك الفترة الحافلة بالأحداث الجِسام، صارت همدانُ صاحبة الدّور المنيف، الذي لا يُدانيه دورُ أيّ قبيلة أخرى في معسكر «العراق» وعندما انفرط عَقد نظامه إثر داهية التحكيم، فخرج منها المُحكمة (الخوارج)، ومال قسم ضمناً إلى معاوية، ظلّت همدانُ على صلابتها وإخلاصها. في هذه الفترة الفاصلة اكتسبت همدانُ الصورة التي دخلت بها التاريخ وأذهان الناس، بوصفها قبيلةً شيعيّةً خالصة. وذلك ما صنع تاريخها في الزمن الآتي. وكان لنا في «لبنان» من هذا التاريخ نصيب.

(2) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1987م)، الجزء 1، الصفحة 380.

(3) علي بن الحسن بن عساكر، تهذيب تاريخ ابن عساكر، الجزء 4، نقلاً عن: جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة، مصدر سابق، الصفحة 119.

ويعود السبب التاريخي لهجرتهم إلى هذه المنطقة، ما حصل بعد معركة صفّين، من ظلم واضطهاد، ولاسيما اغتيال الإمام الحسن عليه السلام.

وهكذا خرجت تلك الجموع من «**الكوفة**» لتنزل منازل جديدة متباعدة. بحيث إنّ بعض همدان نزل «**مصر**» و«**الأندلس**» ولكنّ أكثرها، فيما تدلّ عليه الدلائل، نزل بقاعاً معلومةً من أرض «**الشام**».

هجرات الشيعة من كسروان وغيرها إلى بعلبك:

يتّفق المؤرّخون أنّ أكثر العائلات والعشائر الشيعيّة في منطقة بعلبك الهرمل، هوجر إليها من مناطق جبيل وكسروان، حيث تميّز تاريخها هناك بالصدامات مع السلطات المركزيّة، بدءاً من المماليك وحتى الأمراء الشهابيّين. ونتيجةً للظروف غير المؤاتية، وفدت إليها عائلات أخرى من المناطق المحيطة، ومن مناطق أخرى في لبنان.

وما يهمّنا هنا هو رصد حركة العائلات الشيعيّة التي اتّجهت نحو منطقة بعلبك - الهرمل من مناطق مختلفة في لبنان، ولعلّ أكثرها أهميّة هو الجبل الذي نزحت منه العشائر الحماديّة وعائلات أخرى سكنته منذ قرون، فأقامت في كسروان وجبيل وركّزت فيها سلطتها، لكنّها اندفعت باتّجاه منطقة بعلبك - الهرمل نتيجة الظروف السياسيّة غير المناسبة.

فثمّة ما يشبه الإجماع بين المؤرّخين، أنّ أسباب نزوح العشائر الحماديّة من مناطق كسروان تعود إلى الظروف السياسيّة غير المناسبة التي تعرّض لها الشيعة طيلة مراحل تاريخيّة متعدّدة، ما يعني أنّ هذا النزوح لم يحصل دفعة واحدة، بل على مراحل حيث استُكملت حركة النزوح هذه في نهاية القرن الثامن عشر، وما إن أطلّ القرن التاسع عشر حتى انتهت من عملية تشكّلها في جرود الهرمل.

وهناك عدد كبير من المؤرّخين أكّدوا على أنّ أسباب النزوح تعود إلى الحروب التي دارت في الجبل في العهد المملوكيّ، حيث أورد ابن يحيى في كتابه «**تاريخ بيروت**» أنّ العسكر المملوكيّ نجح في اجتياح كسروان بعد محاولات فاشلة كثيرة، فقتل من أهلها

من قتل، ونفى أو شرّد قسماً آخر اتّجه صوب بعلبك[1].

وفي عام 1291م جرّد الملك الأشرف خليل بن قلاون حملةً من العساكر إلى جبل كسروان لكسر شوكة العشائر الممتنعة عن قبول سلطة الدولة هناك، وكان أهالي كسروان قد بقوا حتى ذلك الوقت خارج سطوة ملوك دمشق وحكّامها. ولم تؤدِّ هذه الحملات إلى سيطرة كاملة للمماليك على جرود كسروان، فلم تمضِ سنوات حتى عاد أهل المنطقة إلى تحدّي النظام القائم.

ويذكر كمال الصليبي أنّه في عام 1305م، سار الأمير جمال الدين آقوش الأفرم من دمشق لقتال أهل كسروان، بعد أن قدم إليها عام 1304م الفقيه الحنبليّ ابن تيميّة لمفاوضتهم، ولمّا لم ينجح في مهمّته، دعا إلى القضاء عليهم نهائياً، فدارت معركة وأعمل فيهم السيف حتى تفرّقوا في جزّين وبلادها، وبلاد بعلبك، وبعضهم أعطوا الدولة أمانتهم[2].

الحراك العائليّ في السلسلة الشرقيّة

بالإضافة إلى الظروف السياسيّة التي دفعت العشائر الحماديّة للنزوح إلى المناطق الجرديّة في الهرمل هرباً من السلطة المركزية، كانت هناك حركة نزوح من السلسلة الجبليّة الشرقيّة المحاذية لسوريا من قبل عدد من العائلات التي ترجع بأصولها إلى تلك السفوح، ومنها عائلة الحرفوش التي ترجع أصلاً - كما يعتبر الشيخ جعفر المهاجر في كتابه التأسيس لتاريخ الشيعة - إلى قريتي «**الجبّة**» و«**عسال الورد**» ويرجع أسباب قدوم هذه العائلات إلى فقدان التكافؤ بين القدرة الإنتاجيّة لتلك الجبال والتكاثر السكانيّ[3]. ويضاف إليها عوامل أخرى تتعلّق بالأسباب الثأريّة، حيث لا تزال

(1) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ورد في كتاب جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة، مصدر سابق، الصفحة 115.
(2) كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مصدر سابق، الصفحتان 136 - 137.
(3) جعفر المهاجر، التأسيس لتاريخ الشيعة، مصدر سابق، الصفحات من 115 إلى 117.

ذاكرة المعمّرين تحتفظ برواية تُرجع أسباب نزول العديد من العائلات من القريتين المذكورتين إلى الحادثة الثأريّة التي وقعت بين «**مرعي البقداني**» (نسبة إلى قرية بقدانة المجاورة لعسال الورد)، وعائلات إحدى القرى المجاورة وهم من أهل السنّة، ففرّ بعد أن قتل عدداً منهم مع عائلته إلى بعلبك، وكذلك فعلت عائلات كثيرة في القرى المجاورة خوفاً من أن يطالها الانتقام. ومن بين هذه العائلات عوائل ياغي، الطفيلي، العوطة، علاء الدين، حسن، طالب، عباس[1]، وهي من العائلات التي لا تزال تسكن المدينة حتى يومنا هذا.

النزوح من جبل عامل باتّجاه بعلبك

وإلى جانب النزول من السلسلة الشرقيّة، ثمّة حركة نزوح من مناطق أخرى، ولكن هذه المرّة بدافع سياسي هرباً من السلطة المركزيّة، تمثّلت بحركة النزوح من جبل عامل باتّجاه بعلبك طلباً للأمن. وكما يروي محمد جابر آل صفا في تاريخ جبل عامل، أنّه في فترة حكم الأمير فخر الدين، نزحت بعض العائلات إلى بعلبك، حيث كان يتسلّم زمام السلطة فيها الحرافشة عام 1616م بعدما طلب الأمير فخر الدين من مشايخ تلك البلاد دفع أموال متأخّرة عليهم خمس سنين، فنزح آل الصغير أمراء تلك البلاد، ومعهم آل شكر[2]. وكذلك أورد السيّد محسن الأمين، بأنّه لمّا استولى الجزّار على جبل عامل بعد قتل ناصيف نصّار، أخذ يقتل العلماء الشيعة فهرب جماعة منهم إلى بعلبك[3].

(1) مقابلة مع الأستاذ عباس حسن، باحث في تاريخ قدوم العائلات إلى منطقة بعلبك – الهرمل، أجريت في 5/11/1997م.
(2) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، الطبعة 2 (بيروت: دار النهار للنشر، 1984م)، الصفحة 44.
(3) السيّد محسن الأمين، أعيان الشيعة (بيروت: دار التعارف)، المجلد 5، الصفحة 430.

الفقيه الكبير ابن ملّي الأنصاريّ البعلبكيّ يتصدّى للتتار

إنّه نجم الدين أحمد بن مُحَسِّن بن ملّي الأنصاريّ البعلبكيّ[1] أوّل فقيه شيعيّ إماميّ أنجبته بعلبك، وأحد أذكياء الرجال وفضلائهم في الفقه والأصول والطبّ والفلسفة والعربية والمناظرة. كان متبحّراً في العلوم، كثير الفضائل، أسداً في المناظرة، فصيح العبارة ذكيّاً متيقّظاً، حاضر الحُجّة، حادّ القريحة، مقداماً. إلّا أنّ النقطة المضيئة في سيرته إلى حدّ السّطوع والتألّق ما كان يتحلّى به من صفات وخصوصاً الإقدام والشجاعة. وقد نجح في أن يكون ضمير قومه، بل أمّته في لحظة من أشدّ اللحظات وأقساها يوم اجتاح التتار «**دار الإسلام**» من مشرقها، ذلك الاجتياح المهول، للمنطقة الشاميّة، ومنها وطن ابن ملّي «**بعلبك**». فنظّم وقاد حرب عصابات شعبيّة ناجحة في وجههم في بعلبك وجبالها، في وقت تهاوت العروش، ولم تثبُت الجيوش النظامية، من تركستان إلى أبواب مصر. وتلك مبادرة فريدة في تلك الأيام السوداء، وذلك درس حقيق أن يُقرأ اليوم ويُستعاد.

نجح ابن ملّي في نقل الشيعة في وطنه إلى موقع متقدّم على طريق الجهاد، وحقّق نقلة نوعية كبيرة تختلف كثيراً عن الوضع الخامد المتلقّي الذي كانوا فيه. فقد نجح في

(1) ابن ملي في موسوعة طبقات الفقهاء للشيخ جعفر السبحاني (14/1031-1032) :
ابن ملّي (617-699 هـ): أحمد بن محسّن بن ملّي بن حسن الأنصاري، العلامة، الإمامي، المتفنّن، نجم الدين أبو العباس البعلبكي. قال الذهبي: كان أحد أذكياء الرجال وفضلائهم في الفقه والأصول والطب والفلسفة والعربية والمناظرة.
ولد المترجم له في بعلبك سنة سبع عشرة وستمئة، وتتلّمذ في بلده وفي دمشق وحلب. سمع من: محمد بن الحسين بن عبد الله بن رواحة الحموي الشافعي (المتوفّى 642 هـ)، وزكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، وآخرين. وأخذ النحو عن ابن الحاجب، وفقه الشافعية عن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي. ولازم الفقيه الإمامي أحمد بن علي بن معقل الحمصي البعلبكي في الفقه وغيره. وتقدّم في العلوم و اشتهر، حتى صار- كما يقول اليونيني- إماماً في مذهب الشافعي، وكذلك مذهب الشيعة، يقتدى به. وكان جريئًا، مقدامًا. غادر بعد استيلاء التتر على الشام (658 هـ) مدينة بعلبك، واتّخذ من جبالها مقرًّا له ولأتباعه من المجاهدين، وتسمّى بالملك الأقرع، وقاد حرب عصابات شعبية ضد التتر.
ولما دالت دولة التتر، اختفى ابن ملي خوفًا من اعتقاله، ثمّ ظهر في مدينة إسنا (بصعيد مصر)، ثم انتقل منها إلى مدينة أسوان، فاستقرّ فيها مدّة يدرس في المدرسة الباباسيّة. وقد دخل مصر غير مرّة، وأقام ببغداد مدّة معيداً بالمدرسة النظامية. وكان قويّ الحافظة، درّس، وأفتى، وناظر، ومات في قرية بخعون (بشمال لبنان) سنة تسع وتسعين وستمئة.

تنظيم الشيعة لأوّل مرّة بعد أن اضطرب وضعهم بسبب الغزو الصليبيّ وما تلاه. وذلك هو المغزى التاريخيّ الكبير لأعماله الجهادية الذي يستحقّ أن يدخل التاريخ؛ لأنّه قام بأوّل مبادرة جماعية ذات معنى وبعد سياسيّ وجهادي، اتّخذها الشيعة من أهل الشام بعد كل ما تعرّضوا له من ظلم وقتل.

فعندما استولى التتار على الشام كان ابن ملّي بجبال بعلبك، وقد جمع له عشرة آلاف نفر، تسمّى بالملك الأقرع، وكانوا يتخطّفون التتر في الطرقات وخصوصاً في الليل.

والجدير بالذكر أنّنا لا نقرأ في تاريخ تلك الأيام السوداء أيّ ذكر لعمل دفاعيّ شعبّي، لوقف التتار الزاحفين، أو عرقلة حركتهم وقد ابتعدوا عن أوطانهم الأصلية. وتلك الظروف نموذجية لحرب الكرّ والفرّ التي نسمّيها اليوم «**حرب العصابات**». وقد تحقّقت الشروط الأساسية النظرية لنهوض مقاومة شعبية مسلحة، في وجه الغزاة التتار في بعلبك ومنطقتها على يده، خصوصاً أنّه كان يتمتّع بموقع بين الشيعة من أهل بعلبك وجوارها. ومع ذلك فإنّ التجربة التي خاضها الشيعة في بعلبك وجوارها تحت قيادته، لا يمكن أن تكون قد ضاعت وضاع أثرها مثل نفخة ريح.

المفاهيم الرئيسة

1. لم يأتِ الشيعة إلى بعلبك في فترة تاريخيّة واحدة، ولا من مكان واحد.
2. الكثير من الدراسات والتحقيقات العلمية تعتبر أنّ شيعة بعلبك قد هاجروا إليها من مناطق جبيل وكسروان في جبل لبنان.
3. ما يكاد يُجمع عليه المؤرّخون أنّ أكثر العائلات والعشائر الشيعيّة في هذه المنطقة جاءت من بلاد جبيل وكسروان.
4. ذكر اليعقوبي نصّاً يعود إلى القرن التاسع الميلاديّ يقول فيه: «إنّ بعلبك قومها من الفرس، وفي أطرافها قوم من اليمن».
5. يذكر الشيخ د.جعفر المهاجر أنه في وقتٍ ما من العقد السادس من القرن الأوّل الهجري/ العقد التاسع من القرن السابع الميلادي هبط مهاجرون من همدان وعبد القيس في أطراف بعلبك.
6. قدم المهاجرون إلى لبنان من «الكوفة»، قسمٌ منهم نزل أطراف «بعلبك»، والثاني الهضاب المشرفة والمجاورة لمدينة «طرابلس».

7 - نجح ابن ملّي في نقل الشيعة في وطنه إلى موقع متقدّم على طريق الجهاد، وحقّق نقله نوعية كبيرة تختلف كثيراً عن الوضع الخامد المتلقّي الذي كانوا فيه. وقد نجح ابن ملّي في تنظيم الشيعة لأوّل مرّة في تأريخهم في المنطقة.

8 - كان ابن ملّي بجبال بعلبك، وجمع له عشرة آلاف نفر، وكانوا يتخطّفون التتر في الطرقات، وخصوصاً في الليل. تحقّقت الشروط الأساسية النظرية لنهوض مقاومة شعبية مسلحة، في وجه الغزاة التتار في بعلبك ومنطقتها على يده، خصوصاً أنّه كان يتمتّع بموقع بين الشيعة من أهل بعلبك وجوارها.

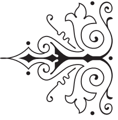
3



الدرس الثالث



تاريخ التشيّع في لبنان (3) بلاد كسروان



• أهداف الدرس •

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف أسباب لجوء الشيعة إلى كسروان فبعلبك.

2 - يدرك أسباب جهاد الشيعة في كسروان.

3 - يعرف نتائج جهاد الشيعة الكسروانيين.

تاريخ الشيعة في كسروان

اختلفت روايات المؤرّخين وآراؤهم في سكّان كسروان من غير الشيعة، فمنهم من رأى أنّهم كانوا دروزاً، ومنهم من رأى أنّهم كانوا موارنة، بينما رأى آخرون أنّهم كانوا من النصيريّة. ولا يوجد خلاف بين المؤرّخين – من الصديق والخصم والعدو – على أنّ الشيعة كانوا من سكان هذه المناطق، ولكنّ الخلاف هو في أصل هذا الوجود وأسبقيته. وحسبُنا في هذا المجال، التركيز على بعض المرويّات والقرائن التاريخية؛ كرسالة ابن تيميّة عام 1340م وما تضمّنته من وصف سكّان كسروان، وما جرى له معهم، ومرويّات المؤرّخين الذين أشاروا إلى غلبة الوجود الشيعيّ في هذه المناطق.

فكمال الصليبي يغلّب وجود الشيعة خلال حكم المماليك من خلال تأكيده للمعارك التي جرت بينهم وبين السلطة المملوكية عام 1291م، معلّلاً ذلك ببقاء الشيعة خارج سلطة ملوك دمشق وحكّامها[1].

أمّا محمد علي مكّي، فيؤكّد هذا الوجود، من خلال بعثة ابن تيميّة وفتواه، والنزوح إلى البقاع وجزّين، واستخدامه مصطلح الرافضة الذي عُرف به الشيعة[2]. ولكن عارف الزين يرى أنّ هذا المصطلح استخدم من قبل ابن تيميّة بحقّ كلّ من خالف مذهبه، سواء أكان الروافض من الشيعة أم من الموارنة أم من الدروز أم من النصيريّة. ولتحديد المصطلح بشكل دقيق، يمكن العودة إلى رسالة ابن تيميّة – وقد ذكرنا نصّها في هذا

---

(1) كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، الطبعة 2، (بيروت: دار نوفل، 1992م)، الصفحة 134.

(2) محمد علي مكّي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثمانيّ (بيروت: دار النهار، 1985م)، الصفحة 229.

الكتاب - ونصّ الرسالة طويل، وفيه الكثير من العناصر الهامّة عن مذهب الكسروانيين الذين أفتى ابن تيميّة بقتالهم، وفيها مقطع لا يترك مجالاً للشكّ في أنهم من الاثني عشريّة، وهذا الأمر تجلّى بذكره لإيمانهم واعتقادهم بالإمام المهديّ المنتظر، وبأنّه حجّة اللّه على أرضه، كما تُحدّد الرسالة مناطق انتشارهم. وبذلك تكون رسالة ابن تيميّة التي بعثها إلى الملك الناصر، والتي برّر فيها قتلهم وتخريب ديارهم، ما يؤكّد أرجحيّة الوجود الشيعيّ في كسروان حتى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد، حين اصطدموا مع الجيش المملوكيّ. وبقي هذا الوجود حتى أواخر القرن السابع عشر، ثمّ امتدّ إلى مناطق أخرى، على قاعدة تسلُّم السلطة. وكما يقول كمال الصليبي: «**إنّه منذ أواخر القرن السابع عشر، وقعت مناطق بشرّي والبترون وجبيل المارونيّة، ومنطقة الكورة الملكيّة الأرثوذكسيّة، تحت نفوذ آل حمادة الشيعة الذين تولّوا أمر هذه المناطق عن ولاة طرابلس، ولم تكن للأمراء الشهابيين في البدء سيادة عليهم**»[1].

ومن الواضح في التاريخ أنّ الكثير من العائلات الشيعيّة اتّجهت نحو منطقة بعلبك - الهرمل من مناطق مختلفة في لبنان، ولعلّ أكثرها أهميّة هو الجبل الذي نزحت منه العشائر الحماديّة وعائلات أخرى سكنته منذ قرون، فأقامت في كسروان وجبيل وركّزت فيها سلطتها، لكنّها اندفعت باتّجاه منطقة بعلبك - الهرمل نتيجة الظروف السياسيّة غير المناسبة، وقد فصّلنا ذلك في الدرس السابق.

كسروان قلعة الشيعة الحصينة

بعد سقوط المدن اللبنانية الساحلية بأيدي الصليبيين، انتقل الوجود الإسلاميّ إلى الجبال المجاورة (كسروان)، علماً أنّ هذه المناطق كانت إسلامية قبل ذلك.

وقد استمرّ هذا الوجود كقلعة حصينة للإسلام إلى عام 1305م، حيث انتكس

(1) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، الطبعة 7 (بيروت: دار النهار للنشر، 1991م)، الصفحة 32.

هذا الوجود انتكاسة خطيرة ومؤسفة على أيدي المماليك، نتيجة للتعصّب المذهبيّ، ولسيطرة وعّاظ السلاطين على عقول الأمراء.

وقد اعتمد المماليك سنّة دينية متعصّبة؛ ومن أجل هذا الهدف عمدوا إلى الضغط والإرهاب والتنكيل بأتباع المذاهب الإسلامية الأخرى.

وكان الناس إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسّوا عليه من رماه بالتشيّع؛ فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يُظهر التوبة عن التشيع.

وعندما تكون القضيّة كبيرة، وتشمل منطقة بأكملها، كانت دولة المماليك تتستّر، وتختلف حججاً مختلفة، كالاتّصال بالصليبيين أو المغول أو الأيوبيين لإسقاط حكم المماليك. ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما حدث في كسروان من معارك رافقها العنف والتدمير، بالإضافة إلى فتاوى ابن تيمية في هدر دماء الكسروانيين.

جهاد الشيعة في كسروان وجبيل

الحملة الأولى:

استفاد الشيعة من مناعة مناطقهم الجبلية في كسروان، وتمتّعوا باستقلال تامّ عمّن يجاورهم من الصليبيين في المدن الساحلية، وعمّن يجاورهم جنوباً وشرقاً من مذاهب أخرى. وبعد استرجاع المدن الساحلية من أيدي الصليبيين تردّد الشيعة الكسروانيون بشأن الخضوع الكامل للسلطة الجديدة؛ ما دفع المماليك لاتّخاذ قرارٍ بتصفية الشيعة في كسروان، حيث يبدو واضحاً من خلال العديد من النصوص التاريخية أنّ ملك الأمراء لاجين المملوكي نائب دمشق أخبر عساكره وأتباعهم أنّه من نهب امرأة منهم كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكاً، ومن أحضر منهم رأساً فله دينار. وقد وجّه قائده سنقر لاستئصال شأفتهم[1] ونهب أموالهم وسبيهم مع ذراريهم، وكان ذلك عام 1285م. لكنّ الشيعة في كسروان تصدّوا ببسالة واستماتة لهذه الحملات المتتالية.

---

(1) الشأفة: الأصل.

الحملة الثانية:

أراد الكسروانيون الشيعة أن يثأروا؛ فتجدّد القتال سنة 1203م، فسارع المماليك إلى إرسال قوّة كبيرة إلى كسروان والجُبيليين، فوقعت معركة كبيرة عند مدينة جبيل، فحمل الكسروانيون على جيش المماليك، فقتلوا أكثره وغنموا أمتعتهم وأسلحتهم، وأخذوا أربعة آلاف من خيلهم، وهزموا الأكراد الذين قدِموا لنجدتهم. حاولت دولة المماليك أن تصلح الوضع بعد هزيمة جيشها على يد شيعة كسروان، ولعلّها أرادت بذلك أن تستفيد من هدنة ما، ريثما تعيد تنظيم الأمور والاستعداد لجولة قاصمة تستأصل من خلالها الوجود الشيعيّ في تلك الناحية.

فعمد ابن تيمية إلى إصدار فتوى بهدر[1] دماء الشيعة الكسروانيين وهدم بيوتهم

(1) ابن تيميّة، وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس النميري، ولقبه «شيخ الإسلام». ولد يوم الإثنين 10 ربيع الأول 661ٍ هـ. أحد علماء الحنابلة، ولد في حرّان؛ وهي بلدة تقع حاليا في جزيرة الشام، بين الخابور والفرات في ما يعرف حاليا بمنطقة الجزيرة السورية، وحرّان حالياً تقع داخل الحدود التركية، وهي على مقربة من الحدود السورية. وحين استولى المغول على بلاد حرّان وجاروا على أهلها، انتقل مع والده وأهله إلى دمشق سنة 667 هـ . كانت جدته لوالده تسمى تيميّة، وعرف بها.
وله فتاوى كثيرة، منها فتواه الشيعة العلوية، فقال: وسُئل رحمه الله تعالى: ما تقول السادة العلماء أئمّة الدين رضي الله عنهم أجمعين وأعانهم على إظهار الحقّ المبين وإخَماد شعب المبطلين، في «النصيرية» القائلين باستحلال الخمر وتناسخ الأرواح وقدم العالم وإنكار البعث والنشور والجنّة والنار في غير الحياة الدنيا، وبأنّ «الصلوات الخمس» عبارة عن خمسة أسماء، وهي : علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة. فذكر هذه الأسماء الخمسة على رأيهم يجزئهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقيّة شروط الصلوات الخمسة وواجباتها... وبعد أن ساق العديد من الصفات والنعوت إلى الشيعة وهم براء منها، أعلن فتواه، فقال: ... وهذه الطائفة الملعونة استولت على جانب كبير من بلاد الشام، وهم معروفون مشهورون متظاهرون بهذا المذهب، وقد حقّق أحوالهم كلّ من خالطهم وعرفهم من عقلاء المسلمين وعلمائهم، ومن عامّة الناس أيضا في هذا الزمان؛ لأنّ أحوالهم كانت مستورة عن أكثر الناس وقت استيلاء الإفرنج المخذولين على البلاد الساحلية؛ فلمّا جاءت أيام الإسلام انكشف حالهم وظهر ضلالهم. والابتلاء بهم كثير جدا. فهل يجوز لمسلم أن يزوّجهم أو يتزوّج منهم؟ وهل يحلّ أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟ وما حكم الجبن المعمول من إنفحة ذبيحتهم؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم؟ وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا ؟ وهل يجوز استخدامهم في ثغور المسلمين وتسليمها إليهم؟ أم يجب على وليّ الأمر قطعهم واستخدام غيرهم من رجال المسلمين الكفاة وهل يأثم إذا أخّر طردهم؟ أم يجوز له التمهّل مع أنّ في عزمه ذلك؟ وإذا استخدمهم وأقطعهم أو لم يقطعهم، هل يجوز له صرف أموال بيت المال عليهم؟ وإذا صرفها وتأخّر لبعضهم بقيّة من معلومه المسمى؛ فأخّره وليّ الأمر عنه وصرفه على غيره من المسلمين أو المستحقّين أو أرصده لذلك، هل يجوز له فعل هذه الصور؟ أم يجب عليه؟ وهل دماء النصيرية المذكورين مباحة وأموالهم حلال أم لا؟ وإذا جاهدهم وليّ الأمر أيّده الله تعالى بإخماد باطلهم وقطعهم من حصون المسلمين وحذر أهل الإسلام من مناكحتهم وأكل ذبائِحهم وألزمهم بالصوم والصلاة ومنعهم من إظهار دينهم الباطل وهم الذين يلونه من الكفار: هل ذلك أفضل وأكثر أجرا من التصدّي والترصّد لقتال التتار في بلادهم وهدم بلاد سيس وديار الإفرنج على أهلها؟ أم هذا أفضل من كونه يجاهد النصيرية المذكورين مرابطا؟ ويكون أجر من رابط في الثغور على ساحل البحر خشية قصد الفرنج أكبر أم هذا أكبر أجرا؟ وهل يجب على من عرف المذكورين ومذاهبهم أن يشهر أمرهم ويساعد على إبطال باطلهم وإظهار الإسلام بينهم، فلعلّ الله تعالى أن يهدي بعضهم إلى الإسلام، وأن يجعل من ذريّتهم وأولادهم مسلمين بعد خروجهم من ذلك الكفر العظيم، أم يجوز التغافل عنهم والإهمال؟ وما قدر المجتهد على ذلك والمجاهد فيه والمرابط له والملازم عليه؟ ولتبسطوا القول في ذلك مثابين مأجورين إن شاء الله تعالى، إنّه على كل شيء قدير؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وحرق أشجارهم، وأنّ قتالهم (الكسروانيين) وقتال النصيرية (العلويين) أولى من قتال الأرمن؛ لأنّهم عدوّ في دار الإسلام، وشرّ بقائهم أضرّ.

الحملة الثالثة:

وبناءً على هذه الفتوى جهّز آقوش سنة 1305م جيشاً كبيراً، بلغ خمسين ألف محارب، وبدأ بغزو المناطق الكسروانية من الشمال، فعرفت بالفتوح[1] (فتوح كسروان) وسقطت كسروان بعد أحد عشر يوماً من القتال. فخرّب آقوش ضياعهم وقطّع كرومهم ومزّقهم، وملك الجبل عنوة، ووضع فيه السيف، وأسر ستمئة رجل، وغنمت العساكر منهم مالاً كثيراً، والسالم منهم تفرّق في جزّين وبلادها والبقاع وبلادها بعلبك، وبعضهم أعطته الدولة أماناً. وكانت أولى النتائج لتفريغ هذه المنطقة من سكّانها الشيعة، أن بدأت الهجرة المارونية إليها على نطاق واسع من شماليّ لبنان، لتغدو فيما بعد منطقة مارونية إلى يومنا هذا. وقد أصبحت جزّين مركزاً هامّاً للتجمّع الشيعيّ المستتر بالشافعية، خلال القرن الرابع عشر.

نتائج الحملات

لقد نتج عن هذه الحملات والحروب عدّة أمور انعكست على الشيعة ومناطقهم، منها:

- ازدهار بعلبك بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم.
- ظهور مقدّمية جزّين التي كانت نواة لنهضة علمية شيعية كبيرة فيما بعد، ومقدّمية أخرى في مشغرة على أيدي عائلة صبح.

منع الشيعة من ممارسة شعائرهم الدينية؛ فاعتمدوا مبدأ التقيّة، وأعلنوا انتماءهم للمذهب الشافعيّ، واستمرّ هذا الوضع حتّى قيام الحركة الشيعية على يد الشهيد الأوّل محمد بن مكّي الجزّينيّ سنة 1383م.

(1) أي عرفت منطقة كسروان بـ: «فتوح كسروان».



المفاهيم الرئيسة:

1 - بعد سقوط المدن اللبنانية الساحلية بأيدي الصليبيين انتقل الوجود الإسلاميّ إلى الجبال المجاورة (كسروان).

2 - كان الناس إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسّوا عليه من رماه بالتشيّع؛ فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يُظهر التوبة عن التشيع.

3 - استفاد الشيعة من مناعة مناطقهم الجبلية في كسروان، وتمتّعوا باستقلال تامّ عمّن يجاورهم من الصليبيين في المدن الساحلية، وعمّن يجاورهم جنوباً وشرقاً من مذاهب أخرى.

4 - أراد الكسروانيون الشيعة أن يثأروا؛ فتجدّد القتال سنة 1203م، فسارع المماليك إلى إرسال قوّة كبيرة إلى كسروان والجُبيليين، فوقعت معركة كبيرة عند مدينة جبيل.

5 - عمد ابن تيمية إلى إصدار فتوى بهدر دماء الشيعة الكسروانيين، وهدم بيوتهم وحرق أشجارهم، وأنّ قتالهم (الكسروانيين) وقتال النصيريّة (العلويين) أولى من قتال الأرمن؛ لأنّهم عدوّ في دار الإسلام، وشرّ بقائهم أضرّ.

4



الدرس الرابع



مقاومة آل حرفوش والعامليين للعثمانيين وغيرهم



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف واقع الشيعة في ظلّ الدولة العثمانية والنظام الإقطاعيّ.

2 - يدرك دور آل حرفوش والعامليين في حفظ الحضور الشيعي في لبنان.

3 - يفهم جوانب من ومقاومة آل حرفوش والعامليين للدولة العثمانية.

أصول آل الحرفوش

ترجع أعراق بني الحرفوش إلى المنطقة الجبليّة شرق «**بعلبك**» - كما ورد في نصٍ فريدٍ - في منطقة «**الجُبّة**» و«**عسال الورد**» (داخل الحدود السوريّة اليوم) في القرن التاسع الهجري، حيث كانوا مقدّميها[1]. وقد كانوا على خصام دائم على المقدّميّة مع أسرةٍ شيعيّة أخرى، هم بنو العوطة. وقد بدأت الأسرتان بالهبوط نحو السهل. فاستقرّ بنو العوطة في الهضاب الشرقيّة المشرفة عن قربٍ على «**بعلبك**»، حيث ما يزالون حتى اليوم. أمّا بنو الحرفوش فقد سلكوا الدروب الملتوية في الأعالي الجنوبيّة، ليستقرّوا في بلدة «**سرعين**» جنوب «**بعلبك**» مدّة من الزمن. ومنها تابعوا هبوطهم إليها، ليتّخذوها قاعدة لإمارتهم التي حكمت المنطقة عدّة قرون.

وعندما انهارت دولة المماليك أمام سطوة الجيش العثماني، بقي بنو الحرفوش على إمارتهم في «**بعلبك**» وما والاها ثمّ إنّ الأمير موسى الحرفوشي - أوّل من نعرفه باسمه من أمرائهم - شارك جان بردي الغزالي ثورته على سادته العثمانيين؛ كما خاض مع أحد قادة الغزالي، المسمّى قانصوه المقرقع، معركة «**جوسيّة**» ضدّ العثمانيين، على الحدود اللبنانيّة - السوريّة اليوم، سنة 924هـ/ 1518م؛ أي بعد الفتح العثماني بسنتين. ولكن لا شكّ أنّ هذا الأمر لم يكن الأوّل من بيته، بل سبقه غيره ممّن ضاعت أسماؤهم. والحقيقة أنّ الأمير عليّاً بن موسى (حكم: 944 - 999هـ/ 1537 - 1590م) هو الذي أرسى دعائم بيته في سُدّة الإمارة، حيث انتزع

---

(1) المهاجر، ش جعفر، شيعة لبنان والمنطلق الحقيقي لتاريخه (م.س).

أوّل أمره الإمارة انتزاعاً من السلطات العثمانيّة. ثمّ إنّه أثناء مدّة حكمه الطويلة مضى بالدهاء والحنكة فضمّ إلى منطقة حكمه، بالإضافة إلى «**بعلبك**»، لواء «**حمص**» ولواء «**تدمر**». وجعلها جميعها ولايةً مستقلّة عن باقي ولايات «**الشام**». بل وفرض أن تكون وحدةً إداريّةً تحت حكمه، لا يحقّ للدولة اقتطاع أيّ جزءٍ منها، وأن يُعفى التجّار والزعماء فيها من الخدمة العسكريّة الإلزاميّة. والمتأمِّل في عناصر هذه السياسة المفروضة يستنتج بسهولة أنّه عمل على تكوين كيانٍ سياسيٍّ وإداريٍّ بحكمه يتمتّع بحظٍ من الاستقلال الداخليّ، خلافاً لكلّ الولايات التابعة للدولة. ولم تتمكّن الدولة من القضاء عليه إلا غدراً، بعد أن نزل «**دمشق**» ضيفاً على واليها محمد بن سنان باشا، فقبض عليه، وأمر بقتله؛ فضُرِبت عنقه في قلعتها، وحُمل رأسه إلى «**استامبول**».

آل حرفوش أمراء بعلبك

بعد الأمير علي المؤسّس تعاقب على الحكم في «**بعلبك**» ثلاثون أميراً حرفوشيّاً عدّاً، مدّة زهاء ثلاثة قرونٍ ونصف. أبرزهم الأمير يونس بن حسين (حكم: 1017 – 1035هـ/ 1608 – 1625م)، الذي يذكّرنا، ببعد نظره وحنكته السياسيّة وشجاعته، بجدّه الأمير علي بن موسى. وهو الذي بنى أوّل مسجد للشيعة في «**بعلبك**». وهذا أمرٌ له دلالته السياسيّة والاجتماعيّة غير الخفيّة. كما عمل على وصل شيعة «**بعلبك**» جغرافياً بإخوانهم في «**جبل عامل**».

الشيعة والدولة العثمانية

لم يكن حال الشيعة في عصر الأتراك بالإجمال أسعد حالاً وأنعم بالاً من بقية الطوائف وأهل المقاطعات، بل كانت وطأة الترك عليهم أشدّ وقعاً، وظلمهم أعظم أثراً. وقد نال الشيعة من أذاهم وأضرارهم الشيء الكثير بسبب الفروق المذهبية

والتعصّب الديني، فنكّلوا بعلمائهم واستحلّوا دماءهم وشتّتوا شملهم وصادروا مكتباتهم وجعلوا مؤلّفاتهم طعاماً للنار، وساروا بالبلاد على سياسة الافتقار والتدمير وجمع الأموال.

مساوئ النظام الإقطاعيّ

وكان من مساوئ النظام الإقطاعيّ ونظام المِلل أنّ الولاة والحكام راحوا يبنون علاقاتهم وتصرّفاتهم على أساس الرّبح الشخصيّ، فكانوا ينهبون أموال المسلمين ويستحلّون أعراضهم ويتلفون مزروعاتهم. وهنا يظهر بوضوح دليل إجبار المسلمين الشيعة في عهد الإمارة المعنية والإمارة الشهابية على هجرة مناطقهم وقراهم في البترون وبشرّي وجبيل ومناطق واسعة من جبل لبنان مرّة أخرى بعد نكبة كسروان في عهد المماليك؛ فهذا الأمير أحمد المعني مثلاً يتحالف مع الأتراك -جيش الدولة- ضدّ أبناء جبل عامل في معركة عيناثا سنة 1659م ومعركة النبطية سنة 1666م ومعركتي أنصار ووادي الكفور سنة 1667م.

الصراع العثماني - الصفوي وتأثيره على شيعة لبنان

نال الشيعة في لبنان من أذى العثمانيين الشيء الكثير، خصوصاً عندما كانت تنشب الحروب بين العثمانيين والصفويين، وعندما يكون الصلح قائماً بين الطرفين كان الشيعة ينعمون بشيء من الحرّية. حاول الشيعة في جبل عامل الاستفادة من هذا الوضع القائم، فقد تقرّبوا من الدولة العثمانية، لكنّهم لم يفكّوا عُرى التعاون مع الصفويين؛ فالشهيد الثاني الشيخ زين الدين الجبعي العاملي كان يدرّس في بعلبك بعد أخذ الإذن من الدولة العثمانية، في الوقت الذي كان العلماء العامليون يتقاطرون على

بلاط الصفويين الإيرانيين، ويتولّون مناصب الإفتاء والتدريس[1]. هذا الترابط ترك آثاره في علاقة العامليين الشيعة بالدولة العثمانية.

(1) كالمحقّق الكركي: الشيخ علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي العاملي (ت 868 – 940هـ.ق.، يعرف بالمحقّق الثاني، ولد في كرك نوح التي كانت معقلاً للشيعة في البقاع من لبنان منذ الفتح الإسلامي، بسبب وجود بعض القبائل الموالية للإمام علي عليه السلام مع الجيوش التي فتحت بلاد الشام، ودخلت البقاع أمثال الهمدانيين وخزاعة.
ولد المحقّق الثاني في هذا البلد العريق في تشيّعه، فدرس الفقه على المذهب الشيعي في بلده على شيوخ العلم في زمانه، كالشيخ علي بن هلال الجزائري، ثم خرج طالباً لعلوم الفرق الإسلامية، فهاجر إلى مصر، لدراسة فقه المذاهب الأربعة، فأخذ هناك من علمائها، وحصّل الإجازات من شيوخها بالرواية، خصوصاً الصحاح الستّة، وبالأخصّ صحيح البخاري وصحيح مسلم وموطّا مالك ومسند أحمد بن حنبل. وبعد ظهور الدولة الصفوية، احتاجت في أوّل أمرها إلى فقهاء يعلّمون الناس أمور دينهم، ويتولّون منصب القضاء لإدارة شؤون الناس، وكان لعلماء جبل عامل السهم الأوفر في هذا المضمار، فقد هاجروا إلى إيران وتولّوا أمور الدولة، وكانت بلدة المحقّق الكركي تعجّ بالعلماء، حيث كان فيها أكثر من ثلاثين عالماً، فهاجروا إلى إيران، وفوّض الشاه الصفوي إليهم تنظيم شؤون الدولة، حسبما يقتضيه الشرع الحنيف، وقد شغل علماء جبل عامل في الدولة الصفويّة مناصب حسّاسة ومهمّة، منها: الأمير وشيخ الإسلام ونائب الإمام والمفتي ومروّج المذهب. وكان الشيخ الكركي على رأس المهاجرين في أوّل نجاح الشاه إسماعيل، فولّاه منصب شيخ كرك وجبل عامل يحثّهم على النهوض إليه للجهاد في نشر الدين الحنيف، ولمّا توافر لديه عدد من رجال الدين، عيّن في كلّ بلد وقرية إماماً يعلّم الناس شرائع الإسلام، ويؤمّهم في الصلاة، ثم نصّب نفسه لتعليم كبار رجال الدولة كالأمير جعفر وزير الشاه، وأمدّه الشاه إسماعيل بسبعين ألف دينار شرعي سنوياً ليصرفها على المدارس، ولمّا تولّى الشاه طهماسب سنة 930، قرّب المحقق الكركي ولقّبه نائب الإمام، وكان علماء الكرك يبعثون الرسائل إلى إخوانهم في كرك وبعلبك وجبل عامل يحثّونهم على الالتحاق بأصفهان، فالمحقق الكركي أرسل إلى الشيخ حسين بن عبد الصمد، والد الشيخ البهائي، وأغراه بالسفر إليه. ثم لعب الكركيون دوراً فعالاً في تنظيم الحياة العلميّة والثقافيّة والاقتصادية والعمرانية في إيران؛ إذ فتحوا المدارس وصرفوا على الطلاب، ونظّموا الخراج والقضاء، وضبطوا اتّجاه القبلة في أكثر بلاد العجم، وهندسوا المساجد والمآذن والقباب، وألّفوا الكتب في الدفاع عن مذهبهم، وردّوا على علماء السنّة ورهبان النصارى.
قال المحقق البحراني: جعل (الشاه طهماسب) أمور المملكة بيده (المحقق الكركي)، وكتب رقماً إلى جميع الممالك بامتثال ما يأمر به الشيخ المذكور، وكتب أيضاً أن أصل الملك إنّما هو للمحقق الكركي؛ لأنّه نائب الإمام عليه السلام. وقال السيد نعمة الله الجزائري في كتابه «شرح غوالي اللآلي»: «مكّنه السلطان، العادل الشاه طهماسب من الملك والسلطان وقال له: أنت أحقّ بالملك؛ لأنّك نائب عن الإمام، وإنّما أكون من عمّالك أقوم بأوامرك ونواهيك» وأكّد أيضاً «أنّ معزول الشيخ لا يستخدم ومنصوبه لا يعزل».
وكتب الشاه طهماسب، أيضاً، بخطّه في جملة ما كتبه في حق هذا المولى: «... حيث إنّه يبدو ويتضّح من الحديث الصحيح النسبة إلى الإمام الصادق عليه السلام «انظروا إلى من كان منكم، قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فارضوا به حكماً، فإنّي قد جعلته حاكماً، فإذا حكم بحكم فمن لم يقبله منه فإنّما بحكم الله استخفّ وعلينا ردّ وهو رادّ على الله وهو على حدّ الشرك»، وأوضح أنّ مخالفة حكم المجتهدين الحافظين لشرع سيّد المرسلين، هو والشرك في درجة واحدة؛ لذلك فإنّ كلّ من يخالف حكم خاتم المجتهدين ووارث علوم سيّد المرسلين، نائب الأئمّة المعصومين، لا زال اسمه العلّي عليّاً عالياً، ولا يتابعه فإنّه لا محالة ملعون مردود وعن مهبط الملائكة مطرود سيؤخذ بالتأديبات البليغة والتدبيرات العظيمة... كتبه طهماسب بن شاه إسماعيل الصفوي الموسوي. فالمحقّق الكركي يعتبر باعث النهضة الشيعية في إيران ومجدّد المذهب وواضع الأسس الشرعيّة الدستورية للدولة الصفوية.

آل حرفوش [1] ومشروع الإمارة الشيعية الكبيرة

وبالعودة إلى التمركز السكّاني الشيعي في لبنان، فإنّ عائلة شيعية (آل حرفوش) ذات جذور عربية خزاعية تمركزت منذ الفتح الإسلامي الأوّل في البقاع، وبرزت إلى الواجهة السياسية في القرن السادس عشر الميلادي، عندما تسلّموا حكم البقاع بعد مقتل منصور الفُريخ على يد والي دمشق العثماني بوشاية فخر الدين الثاني عام 1593م، ولمع اسم الأمير موسى الحرفوش الذي اشترك في قتل ابن فريخ، ثمّ تسلّم حكم البقاع مكانه الأمير يونس الحرفوش الذي كان له شأن كبير في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وكان على وفاق مع الأسر الشيعية في جبل عامل «**ولبنان**»، وكان يحسن وفادتهم في أيام ضيقهم. وقد برز من هذه العائلة أيضاً عدد من الأمراء والعلماء، ثم راحوا يتطلّعون لمدّ نفوذهم إلى مناطق خارج بعلبك والبقاع ما سيؤدّي إلى نزاع وتخاصم بينهم وبين المعنيين، خصوصاً في عهد فخر الدين. وقد برز الدور الريادي لآل حرفوش في تجميع الشيعة، بعد تدهور نفوذ الأمير المعني فخر الدين، فتوحّد آل حمادة وآل حرفوش بعد مهاجمة فارس شهاب بعلبك، فهُزم الشهابيّ المذكور.

(1) سكنوا بعلبك وكرك نوح، ومن أشهرهم الأمير علي بن موسى الحرفوش(1537–1590م)«إنّ الوثائق العثمانية الرسمية تؤكّد، من خلال ذكر بعض أخبار الأمير علي والمراسلات المتعلّقة به، أنّه كان من أعظم أمرآء بلاد الشام سلطانا ونفوذاً في عصره، وربّما في العصور العثمانية اللاحقة. واستمرّوا في الحكم إلى العام 1868 م (منتصف القرن التاسع عشر) حيث فتكت بهم الدولة ونفتهم خارج بلادهم، وذلك عام 1868 – 1869. وعيّنت لهم معاشات، ثمّ سكنوا اسطنبول، ودخلوا في وظائف الدولة العليا حتى صار منهم رئيس شورى الدولة المشير نصرت باشا، وبقي منهم بقيّة في تمنين وسرعين وشعث والنبيّ رشادي في قضاء بعلبك. ثمّ ما لبث أن عاد معظمهم على دفعات، وبقي بعضهم في تركيا (ذريّة أمين بن قبلان) وبعضهم الآخر انتقل من إسطنبول الى مصر (من ذريّة كلّ من حسين ومحمد أولاد الأمير أحمد الحرفوش حصرا).

ورد اسم ابن الحرفوش لأوّل مرّة كنائب عن بعلبك في حوادث سنة 390هـ 1497م، فكان في عداد المشاركين في حصار دمشق مع الدوادار أقبردي الذي ناصره من المقدّمين شيخ بلاد نابلس حسن إسماعيل، و نائب بعلبك ابن الحرفوش، ومقدّم الزبداني ومقدّم التيامنة ابن بشارة، ومنذ ذلك التاريخ حتى وقت مبكر من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ستبقى سلالة هذا النائب بارزة في جميع التطورات التي شهدتها مدينة بعلبك وبلادها. وبذلك تكون مدّة حكمهم ما يقارب ثلاثة قرون ونصف القرن من عام 1497م حتى 1865 م تاريخ القبض على الأمير سلمان، اتّسمت خلالها في كثير من الأحيان بالنزاع فيما بينهم والعصيان على الدولة وتبديل التحالفات فيما بينهم وبين الأسر الحاكمة المحيطة بهم. كما جاء في كتاب الثورة الشيعية في لبنان لسعدون حمادة أنّ أوّل إشارة لهم وردت في يوميّات الرحالة المملوكي ابن طوق عام 1480م، عن كتاب التأسيس لتاريخ الشيعة، المهاجر ص 113. وقد ذهبت تواريخهم مع الحوادث، ولم يبقَ منها إلا النزر اليسير.

معركة عنجر

وفي عهد الأمير يونس الحرفوش كانت العلاقات مع الأمير المعني فخر الدين قد تطوّرت، وتمّت المصاهرة بين الأسرتين، بعد زواج أحمد يونس الحرفوش بفاخرة كريمة فخر الدين عام 1618م. لكنّ هذا التقارب سرعان ما تعكّر عندما حاول الأمير يونس الحرفوش مدّ نفوذه جنوباً نحو سنجقية صفد، ومن ضمنها جبل عامل؛ ما دفع الأمير فخر الدين إلى الإيقاع بيونس الحرفوش والعمل على ضربه، خصوصاً أنّ فخر الدين شعر بالتعاطف القويّ المتبادل بين العامليين والحرافشة. هذا التقارب أقلق فخر الدين الذي أخذ يعدّ العدّة ضدّ حلفاء الأمس، إلى أن جاءت سنة 1618م، فقرّر صهر فخر الدين الأمير أحمد يونس الحرفوشي بناء قصر في «**مشغرة**»، وصار يراسل المشايخ المتعيّنين من بني داغر وأولاد علي الصغير وابن منكر، ما أقلق فخر الدين وأدّى إلى معركة عنجر الشهيرة سنة 1623م والتي أُسِر فيها الوالي الذي كان حليفاً للأمير الحرفوشي، وانتهى البقاع إلى فخر الدين حتّى سنة 1633م عندما اعتُقِل فخر الدين ونُقل إلى الأستانة، وسرعان ما استعاد آل حرفوش في نهاية القرن السابع عشر الميلادي قوّتهم على بلاد البقاع.

آل حرفوش ملاذ شيعة لبنان

وبالتقييم العام يمكننا أن نستنتج أنّ آل حرفوش كانوا ملاذاً لإخوانهم الشيعة، سواء في بلاد جبيل من آل حمادة أم للعامليين من آل منكر. وقد لاقت رغبة يونس الحرفوش بمدّ نفوذه إلى أبعد من البقاع تجاوباً لدى العامليين الذين كانوا يتوُقون للتخلّص من سيطرة آل معن. ويبدو أنّ العامليين كانوا يتّصلون بالحرافشة على أساس الجامعة المذهبية فقط، فإنّ العامليين والبعلبكيين يشتركون في اعتناق التشيّع منذ العهد الأوّل، وهكذا كان تطلّع العامليين ناحية آل حرفوش، ضمن السياق العامّ الذي تطلَّع من خلاله العامليون إلى من يخلّصهم من تحكّم المعنيين.

كيف قاوم العامليون تسلّط الأمراء والحكّام وولاة الدولة وظلمهم؟

أصيب الشيعة في لبنان عامّة وفي جبل عامل خاصّة بالبلاء والمحن جراء الاضطهاد التركيّ والاستعانة بأهل المقاطعات المجاورة من أنصارهم، فأصبحت بلاد عاملة عرضة للغارات من كلّ حدب وصوب، فاشتبك العامليون – يقودهم علماؤهم وزعماؤهم – مع أعدائهم في حروب دامية، رخصت فيها النفوس واستُهينت الأرواح.

لقد كان توالي تلك الحروب الطاحنة، وتألّب الطوائف المجاورة على أبناء جبل عامل لاختلافهم عنهم، سبباً أوّليّاً لوقوفهم وقفة الأبطال دفاعاً عن أوطانهم، وحفظاً لكيانهم. وقد خلق منهم هذا الإرهاق الشديد شعباً حربيّاً باسلاً يهزأ بالمنايا ويرى الموت حياة خالدة تحت شفار السيوف. وانصرف الشعب العامليّ كلّه في ذاك العهد لممارسة فنون الحرب، وكان لا همّ له في فترات السلم إلّا شحذ السيوف وتسديد المرمى والكرّ على ظهور الخيل يعلّمونه أولادهم منذ الصغر لا يعبؤون بذهب يُجمع أو ذخر يُرفع أو قصر يُبنى أو غرس يُجنى، ولم يكن فخرهم إلا بعدوٍّ يُغلب.

وكان الشعب العامليّ مدرّباً على الطاعة، ينفرون كباراً وصغاراً في حالة الخطر للدفاع عن وطنهم، والانضواء تحت لواء القادة عند أوّل إشارة. وكانت قصائدهم وأهازيجهم وشعرهم الزجليّ حماسية محضة، تكاد تكون مقصورة على التباهي بالنصر والظفر والحثّ على خوض المنايا والموت في سبيل الذود عن الوطن والكيان. وزادهم عزّة في نفوس جيرانهم الظفر الخاطف والسريع الذي كانوا يحقّقونه في المعارك التي يخوضونها.

دور حكّام المقاطعات العاملية

كانت سلطة الدولة العثمانية سلطة اسمية، لا يهمها إلّا تحصيل الضرائب. وكان حكّام المقاطعات العاملية مطلقي اليد في مقاطعاتهم، لا رقيب على أعمالهم سوى سلطة العلماء. لم يكن العامليون في زمن الأمراء الشهابيين أحسن حالاً ممّا كانوا عليه

في زمن من سبقهم من الأمراء المعنيين. ثمّ إنّ السلطة العثمانية كانت عبر ولاتها وموظّفيها من الأمراء والمقدَّمين وغيرهم ترى أنّ الأوضاع تقتضي أن لا يبرز فقهاء شيعة أو حكّام ومشايخ، لأنّ ذلك يتواصل في المبدأ مع مفهوم الشرعية المعلن عند عدوّتها اللدود، الدولة الصفوية، التي استعان حكّامها بالفقهاء المجتهدين في إدارة شؤون البلاد في الكثير من المواقع[1]، في مقابل مبدأ الخلافة عند العثمانيين. ومن أجل ذلك أرهقت الدولة العثمانية العامليين بالحروب المتواصلة والذرائع التعسّفية كي لا تقوم لهم قائمة، وهذا ما جعل العديد من علمائهم الكبار يهاجرون إلى إيران. ورغم ذلك فإنّ العامليين اتّصفوا بالشجاعة والإقدام والتضحيات ومكافحة المعتدي الدخيل وردّ الغارات. وكانوا إذا هاجمهم الأعداء أو أراد بهم حاكم أجنبي عن بلادهم شرّاً، هبّت المقاطعات كلّها هبّة رجل واحد، واتّحدت كلّها لصدّ المعتدي بقوّة السلاح، لا فرق بين صغير وكبير وغني وفقير.

وخير دليل على ذلك ما خاضه العامليون من معارك دفاعاً عن أنفسهم وأرضهم وعائلاتهم وعقيدتهم.

محاولات اقتلاع الشيعة من أرضهم

وفي المقابل فقد استمرّ النهج السابق للولاة والأمراء وبتنسيق محكم لإضعاف الشيعة واقتلاعهم من أرضهم، تماماً كما حدث في كسروان من قبل. وإلّا فما معنى الذريعة التي تذرّع بها ملحم الشهابي من أنّه يفتّش عن خصمه علي علم الدين، فيهاجم قرية أنصار سنة 1743م والقوم عزّل من السلاح، ويذبح منهم ألفاً وأربعمئة رجل، وهم يؤدّون صلاة الجمعة، ثمّ أتبع ذلك بمعارك مرهقة في مرجعيون ودير قانون.

(1) فقد فوّض الشاه طهماسب الصفوي الفقهاء، وعلى رأسهم المحقّق الكركي (الفقيه العاملي) سلطةً واسعةً في بلاد إيران في القضاء والفتيا وإقامة الجمعات، وجمع الأخماس والزكوات، والنصب والعزل كما فصّلناه سابقاً...

المفاهيم الرئيسة:

1 - لم يكن حال الشيعة في عصر الأتراك بالإجمال أسعد حالاً وأنعم بالاً من بقيّة الطوائف وأهل المقاطعات. وقد نال الشيعة من أذاهم الشيء الكثير بسبب الفروق المذهبية والتعصّب الديني.

2 - كان من مساوئ النظام الإقطاعي ونظام المِلل أنّ الولاة والحكام راحوا يبنون علاقاتهم وتصرّفاتهم على أساس الرّبح الشخصي، فكانوا ينهبون أموال المسلمين ويستحلّون أعراضهم.

3 - الشهيد الثاني الشيخ زين الدين الجبعي العاملي كان يدرّس في بعلبك بعد أخذ الإذن من الدولة العثمانية، في الوقت الذي كان العلماء العامليون يتقاطرون على بلاط الصفويين الإيرانيين.

4 - إنّ عائلة شيعية ذات جذور عربية خزاعية تمركزت منذ الفتح الإسلاميّ الأوّل في البقاع.

5 - برز الدور الريادي لآل حرفوش في تجميع الشيعة، بعد تدهور نفوذ الأمير المعني فخر الدين، فتوحّد آل حمادة وآل حرفوش بعد مهاجمة فارس شهاب بعلبك، فهُزم الشهابي المذكور.

6 - في عهد الأمير يونس الحرفوش كانت العلاقات مع الأمير المعني فخر الدين قد تطوّرت، وتمت المصاهرة بين الأسرتين. وسرعان ما استعاد آل حرفوش في نهاية القرن السابع عشر الميلادي قوّتهم على بلاد البقاع بعد سقوطها في معركة عنجر الشهيرة.

7 - أصيب الشيعة في لبنان عامّة وفي جبل عامل خاصّة بالبلاء والمحن من جراء الاضطهاد التركيّ.

8 - كان الشعب العاملي مدرّباً على الطاعة، ينفرون كباراً وصغاراً في حالة الخطر للدفاع عن وطنهم، والانضواء تحت لواء القادة.

5



الدرس الخامس:



شيعة لبنان في مواجهة الغزو الصليبي



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف أسباب مواجهة شيعة لبنان للغزو الصليبيّ.

2 - يعرف أساليب مواجهة العامليين للغزو الصليبيّ.

3 - يدرك آثار ونتائج مواجهة الشيعة للغزو الصليبيّ.

كيف بدأت الحركة الصليبية؟

بدأت الحركة الصليبية في جنوبيّ فرنسا منذ أواخر القرن الثالث الهجريّ/ التاسع الميلاديّ، وكانت موجّهة في البداية ضدّ الأندلس والمماليك الإسلامية الأوروبية. وفي عام 1088م اعتلى العرش البابويّ «**أربانوس الثاني**» وهو من بابوات الحيّ اليهوديّ... وقد اعتلى إحدى المنصّات في مدينة «**كليرمونت**» الفرنسية ليزفّ للجماهير نبأ إعلان الحروب الصليبية، وقد ابتدأ بالقول: «**انهضوا وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستخدمونها ضدّ إخوانكم، ووجّهوها ضدّ أعدائكم، أعداء المسيحية. قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مدينة القدس**»[1] ... وهكذا بدأت الحملة الصليبية الأولى.

بدأت هذه الحملة اجتياحها لبلاد الشرق الإسلاميّ بعد أن اجتازت القسطنطينية، وهزمت السلاجقة المسلمين، وأسّست أوّل إمارة صليبية في الرّها، ثمّ خرجوا إلى أنطاكية واحتلّوها، وأسّسوا فيها إمارة صليبية ثانية، واندفعوا نحو بلاد الشام مروراً بالساحل الشماليّ للبنان.

(1) لمّا عادت للبابوية قوّتها بعد موت هنري الرابع «Henri iv»، تطلّعت البابوية إلى تأسيس حكومة في الشرق تجمع بين السلطتين الزمنية والدينية؛ ولذلك حرّضت البابوية على الحروب الصليبية، حيث اتّخذ البابا أربانوس الثاني «urbanus II1099» ـ 1088م، المعروف بتعصّبه ضد المسلمين عندما كان راهباً لدير كلوني، والذي غذّى حرب المسلمين في الأندلس، وادعى أنّ الحجاج المسيحيين يلاقون الاضطهاد والأذى أثناء زيارتهم إلى بيت المقدس، اتّخذ من ذلك ذريعة لحرب المسلمين، وكان هذا البابا يرى بأنّ وظيفة البابوية الأساسية هي القيادة العليا للحرب المقدّسة، ثمّ إنّ الحروب الصليبية هي بمثابة سياسة البابوية الخارجية، فهي التي تديرها وتتحرّك وفقها، والبابوات هم الذين نظّموا الحرب ووجّهوها.

كيف واجه الشيعة الغزو الصليبيّ؟

وأوّل من اعترض هذه الحملة مدينة صيدا والقرى المجاورة لها، فقد تعرّضوا للصليبين أثناء زحفهم نحو بيت المقدس. وصمدت مدينة صيدا، وظلّت تنعم بالهدوء والاستقرار بحماية الأسطول الفاطميّ من البحر، وقوّات طغتكين أتابك دمشق السلجوقيّ[1]. لكنّ طرابلس، التي استبسلت بالدفاع عن نفسها زمن حكم «**بني عمار**»[2] لها، جعل الصليبيون يضيّقون الخناق والحصار براً وبحراً عليها؛ فسقطت عام 1109م بعد انقطاع الإمدادات عنها. وكان لسقوط طرابلس وقع كبير على بقيّة المدن اللبنانية الساحلية؛ فسقطت بيروت عام 1110م، ثمّ صيدا في آخر العام نفسه. وبسقوطها تكون المنطقة الجنوبية من لبنان الحاليّ قد أصبحت، ما عدا مدينة صور، بأيدي الصليبيين.

(1) **أتابك** (الأصل آتا = أبٌ، بك = سيّد) لقب تركي أطلقة السلاجقة على بعض رجال البلاط والوزراء والقادة، يعني القائد أو الحاكم العسكري. تمكّن بعض الأتابكة من السيطرة على الحكم في القرن 12 في بلاد فارس وبلاد الشام. أشهرهم أتابكة آذربيجان وفارس وسلالة بوري بن طغتكين في دمشق والزنكيون في الموصل والشام (1104–1128).

(2) يرجع نسب بني عمار إلى قبيلة كتامة الأمازيغية البربرية المغربية الأفريقية، وقد اعتنق الكتاميون الإسلام في بداية القرن الثامن الميلادي (710م) مع وصول الفتح الإسلامي إلى مناطقهم، بعدما تفهّموا أهداف الفاتحين الجدد غير المادية، ومبادئهم غير المعقدّة عكس من سبقوهم، فتعاونوا جميعًا على طرد البيزنطيين والرومان وتحرير البلاد نهائيًا. وأدّى اندماج مباداءهم العنصرين إلى تكوين مجتمع جديد على أسس ونهج جديدين، ونتج عن ذلك قيام ممالك بربرية معروفة. وقد خضعت أقاليم كتامة لسيطرة الأغالبة، ثمّ الزيريين(ثم الحماديين ثم الموحدين). وقد كانت لهم ممالك مستقلّة وقادة عظماء في تلك الفترة. وعندما قامت الدولة الفاطمية اعتنق الكتاميون المذهب الشيعي الإسماعيلي، ولم يُعلم زمن انتقالهم إلى المذهب الجعفري بالتحديد، والظاهر أنّ هذا الأمر حصل بعد انتقالهم إلى الشام، والقدر المتيقّن أنّهم عندما استقلّوا بدولتهم فيها كانوا على مذهب الشيعة الاثني عشرية. وبقيت طرابلس بأيديهم نحوًا من 40 سنة، حتى انتزعها منهم الصليبيون سنة 502 هجرية، وكان أهلها في ذلك العصر شيعة اثني عشرية.
قال السيد محسن الأمين (ره) في أعيانه: طرابلس أو أطرابلس بالهمزة، مدينة في ساحل بحر الشام، كان أهلها شيعة في عصر الشيخ الطوسي في القرن الرابع وما بعده (...) ثمّ انقرض منها التشيّع بالعداوات والضغط، ويوجد في نواحيها اليوم بعض القرى الشيعية.
ويقول ناصر خسرو في كتابه سفرنامة عندما زار طرابلس في القرن الخامس الهجري: وسكّان طرابلس كلّهم شيعة، وقد شيّد الشيعة مساجد جميلة في كلّ البلاد.
ويقول المستشرق آدم متز في كتاب «الحضارة الإسلامية»: «وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس في عام (428هـ – 1037م) شيعة، فقد جاء ذلك من أنّ بني عمار، وهم إحدى الأسرات الصغيرة الكثيرة على الأطراف، كانوا هناك على مذهب الشيعة».

صمود مدينة صور

بنى الصليبيون قلعةً كبيرةً في بلدة «**تبنين**» لمراقبة حصار صور. وبقيت منطقة جبل عامل بعد سنة 1110م المنطقة الوحيدة التي تربط دمشق بميناء بحريّ هو صور؛ لذلك كان طغتكين أتابك دمشق يهتمّ كثيراً بإبقاء المنطقة نقطة ضعف مستمرّة، وأصبح تاريخها بعد سقوط صيدا مرتبطاً بمعركة ومصيرها مدينة صور.

تميّزت هذه المرحلة بتركّز الأعمال على الدفاع عن حاضرة جبل عامل الكبرى، مدينة صور، من أن تسقط بيد الفرنج. وذلك في ظلّ حالة الإحباط التامّ الشبيه بالشلل، التي كانت عليها القوّة السياسية والعسكرية في العالم الإسلاميّ بعد أن نجحت الحملة الصليبية الأولى في اختراقه والوصول إلى قلبه، لتحتلّ مدينة القدس وترتكب فيها واحدة من أبشع المجازر في التاريخ. الأمر الذي كشف كم كان العالم الإسلاميّ آنذاك هشّاً عاجزاً، لا حول له ولا قوة.

ولم يكن في وسع أبناء جبل عامل أن يُنظِّموا طاقاتهم الضئيلة، بالقياس إلى قوّة الأعداء، في سبيل الدفاع عن حاضرتهم (صور) دون سند خارجيّ. والحقّ أنّ الفضل في صمود المدينة زهاء ربع القرن يرجع أولاً: إلى استماتة أهلها في الدفاع عنها بكلّ ما وصلت إليه أيديهم من أدوات سياسية وعسكرية، وثانياً: ما تلقّوه من عون مباشر من إخوانهم أبناء جبل عامل في الملمَّات، وثالثاً: الدعم الذي تولّاه في تلك الأيام العصيبة الأفضل بن أمير الجيوش وزير الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وظهير الدين طغتكين أمير دمشق. والحقّ أنّ صور لم تسقط أخيراً بعد ذلك الصمود الطويل، إلّا بعد مقتل الوزير الأفضل، وعجز طغتكين وحده عن حمايتها في وجه تحالف كافّة القوى الصليبية، من محلية متعاونة وغازية، تحالفاً يهدف إلى إخضاع واحتلال المدينة بالذات.

فلقد كان لصمود صور ربع قرن من الزمن أثر كبير في نفوس المسلمين، لكنّ سقوطها بعد هذا الصمود المجيد ترك وهناً عظيماً فيهم، وبسقوطها غدا «**جبل عامل**» كلّه تحت الاحتلال الصليبيّ.

جبل عامل منطلق الجهاد

بعد خمس وستّين سنة من الاحتلال الصليبيّ التامّ لجبل عامل، بدأ مجرى الأحداث، شيئاً فشيئاً ينعكس سوءاً على المحتلّين. والحقيقة أنّ هذا الانعكاس أخذ يتعاظم كلّما تقدّمت الأيام ليشكّل هجوماً مضاداً على الاحتلال الصليبيّ، لكنّ هذا لم يحقّق اتّصالاً بالأرض العاملية إلّا على يد خليفة نور الدين زنكي ووارث سلطانه صلاح الدين الأيوبي، حيث شهد سهل مرجعيون أوّل صدام كبير بين عسكر صلاح الدين والصليبيين، فتحقّق أوّل نصر كبير على القوات الصليبية المنظّمة والمتأهّبة، لكنّ الانعطاف الأكبر في تاريخ جبل عامل باتّجاه التحرير هو ما نشأ عن معركة حطّين[1] في تموز 1187م.

وما حدث كان أكبر بكثير من نصر عسكريّ، فهذه المعركة لم تتمخّض عن قتل قادة وأسر آخرين فقط، بل أنهت مملكة القدس التي استمرّت أربعاً وثمانين عاماً، كما تركت أمارات ومعاقل الصليبيين في جنوبي الشام، ومنه جبل عامل، جسماً مشلولاً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه، فتهاوت قلاعه الواحدة تلو الأخرى، وهكذا تحرّرت قلاع «**الشقيف**» و«**تبنين**» و«**هونين**» ومدينتا صيدا والصرفند. ومع هذا يرى المؤرّخ السيد حسن الأمين أنّ صلاح الدين لم يستغلّ هذا النصر بالشكل المناسب، بل وأضاع نتائجه، ويعود ذلك لعدّة أسباب، منها: عدم مواصلة الكفاح بعد تحرير القدس، لتحرير باقي أرجاء الوطن. وأنّ صلاح الدين، كما يذكر المؤرّخون، آثر الراحة بعد العناء، والتسليم بعد التمرّد، ولهذا أنهى حالة الحرب مع الإفرنج، واعترف بوجودهم، وسمّى ذلك هدنة. وأعاد إليهم بموجبها عدّة مدن مثل حيفا ويافا، وغيرهما[2].

(1) **معركة حطّين** معركة فاصلة بين الصليبيين وقوات صلاح الدين المسلمة، وقعت في يوم السبت 25 ربيع الثاني 583 هـ الموافق 4 يوليو 1187 م، بالقرب من قرية المجاودة، بين الناصرة وطبرية، انتصر فيها المسلمون، ووضع فيها الصليبيون أنفسهم في وضع غير مريح استراتيجياً في داخل طوق من قوّات صلاح الدين، أسفرت عن سقوط مملكة القدس، وتحرير معظم الأراضي التي احتلّها الصليبيون.

(2) الأمين، حسن، مستدركات أعيان الشيعة، ج2، الصفحة 356 (بتصرّف واختصار).

حسام الدين بشارة، البطل العامليّ المجهول

هو حسام الدين بشارة، بن أسد بن عامر بن مهلهل بن سليمان بن أحمد بن سلامة العامليّ. والمرجّح أنّ هذا الأمير وعسكره اشتركوا في معركة حطّين. وما ذلك الارتفاع واكتساب المكانة إلّا لأنّه أثبت كفاءته في ميدان القتال. وقد ولّاه صلاح الدين على عكا.

وغدت المنطقة الممتدّة من عكّا إلى صيدا محرّرة، بما في ذلك الأعالي الشرقية التي منها جبل عامل. ولم يبقَ بيد الصليبيين سوى حاضرة الجبل الساحلية «**صور**». وفي شهر رمضان 586هـ - 1190م غدا حسام الدين والياً على «**بانياس**»، ومع صفة حسام الدين الرسمية، إذ كان يعرف بـ «**صاحب بانياس**»، فإنّه كان يتّخذ قلعة تبنين مركزاً لعمليّاته العسكرية، لتضييق الخناق على صور المحتلة، ويتولّى وعسكره العامليّ حراسة البلاد الإسلامية من جانبها. وقد توفّي هذا البطل العامليّ بعد حياة مليئة بالجهاد في 598هـ - 1201م. وعلى الرغم من كلّ ما جرى، فإنّ المؤرِّخين يؤكّدون أنّ حسام الدين بشارة وعسكره الذي خاض به الحروب، هم عامليون. وقد نجح أولاده من بعده في إدارة إرث، أبيهم وكانت أمارتهم تضمّ:

- «**جبل هونين**»، وقاعدتها بنت جبيل.
- ناحية تبنين، وقاعدتها تبنين.
- ساحل قانا، وقاعدتها قانا.
- ساحل معركة، وقاعدتها صور.

أي إنّها كانت تشمل القسم الأكبر من جبل عامل. وكذلك نجحوا في الاحتفاظ بإمارتهم طيلة العهد المملوكيّ؛ أي طيلة ثلاثة قرون ونيّف.

جزّين أرض حرّة

وكما أنّها ستصبح حاضرة علميّة، باعثة لنهضة عاملية متكاملة، كذلك كان لها دورها في الجهاد ومقاومة الاحتلال، وإن يكن دوراً منكوراً. وسوف نقف على هذا الدور وما فيه من جهاد وسعي إلى التحرير، وذلك عندما وصلها الإفرنج من الطور (قلعة شرقيّ عكا) وكان عددهم خمسمئة، وهم من أبطال الفرنج؛ فأخلاها أهلها ونزل الفرنج فيها، فتحدّر أهالي جزين من الجبل، أخذوا خيولهم وقتلوا عامّتهم وأسروا قائدهم وهرب من بقي منهم إلى صيدا، ولم يفلت منهم سوى ثلاثة.

يؤخذ من هذه الحادثة التي أُوجزناها باختصار أنّ جزين بقيت أرضاً طاهرة، لم يدنّسها الصليبيون، ولم تطرقها قدم محتلّ، وما كان من هؤلاء الناس، من أهل جبل عامل في مقارعة الاحتلال الصليبي وفي النصر، إشارة واضحة إلى تلك الواقعة الجليلة التي انتصر فيها أهل جزّين على عدوّهم بالذكاء والشجاعة والتصميم وحسن التخطيط.

وخلاصة القول: إنّ العامليين تغلّبوا على محنة الاحتلال، واستطاعوا أن يؤسّسوا مدارسهم، وأن يحتفظوا بوجودهم كاملاً، لا ينقصه الجهل المؤدّي إلى الذوبان والانحلال، وأن يظلّوا أمناء على رسالتهم الفكرية الأصيلة، «فحرسوا اللغة العربية وصانوا علومها في ذلك البحر الفرنجيّ الطاغي، وحرسوا علوم الشريعة وحفظوها وأورثوا الأجيال الآتية أمانة خالدة»[1].

(1) وعلى ما كان لأهل جبل عامل من أثر كبير في الجهاد، فإنّ دورهم جرى طمسه والتعتيم عليه.

المفاهيم الرئيسة:

1- ابتدأ إعلان الحروب الصليبية بمجموعة شعارات منها: «انهضوا وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستخدمونها ضدّ إخوانكم ووجّهوها ضدَّ أعدائكم، أعداء المسيحية. قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مدينة القدس» .

2- بدأت هذه الحملة اجتياحها لبلاد الشرق الإسلاميّ بعد أن اجتازت القسطنطينية وهزمت السلاجقة المسلمين، وأسّست أوّل إمارة صليبية في الرّها، ثمّ خرجوا إلى أنطاكية واحتلّوها.

3- أوّل من اعترض هذه الحملة مدينة صيدا والقرى المجاورة لها، أثناء زحفهم نحو بيت المقدس، حيث تركّزت الأعمال على الدفاع عن حاضرة جبل عامل الكبرى، مدينة صور، من أن تسقط بيد الفرنج.

4- لم يكن في وسع أبناء جبل عامل أن يُنظِّموا طاقاتهم الضئيلة، بالقياس إلى قوّة الأعداء، في سبيل الدفاع عن حاضرتهم، دون سند خارجيّ.

5- لقد كان لصمود صور ربع قرن من الزمن أثر كبير في نفوس المسلمين، لكنّ سقوطها بعد هذا الصمود المجيد ترك وهناً عظيماً في المسلمين. وبسقوطها غدا «جبل عامل» كلّه تحت الاحتلال الصليبيّ.

6- شهد سهل مرجعيون أوّل صدام كبير بين عسكر صلاح الدين والصليبيين، حيث حقّق أوّل نصر كبير على القوات الصليبية المنظّمة والمتأهّبة.

7- غدت المنطقة الممتدّة من عكا إلى صيدا محرّرة، بما في ذلك الأعالي الشرقية التي منها جبل عامل. ولم يبقَ بيد الصليبيين سوى حاضرة الجبل الساحلية «صور».

8- بقيت جزّين أرضاً طاهرة لم يدنّسها الصليبيون، ولم تطرقها قدم محتل. وفي مشاركة هؤلاء الناس من أهل جبل عامل في مقارعة الاحتلال الصليبيّ إشارة واضحة إلى تلك الواقعة الجليلة التي انتصر فيها أهل جزّين على عدوّهم بالذكاء.

6



الدرس السادس



دور الشهيد الأوّل محمد بن مكّي الجزّينيّ في حفظ التشيّع



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف سيرة الشهيد الأوّل محمّد بن مكّي الجزيني.

2 - يتعرّف إلى نشاطه العلميّ وتأثيره في تثبيت التشيّع.

3 - يعرف دوره السياسي وجوانب من جهاده.

قبس من سيرته

هو الشيخ محمّد بن مكّي (جمال الدين) بن محمّد (شمس الدين) بن حامد بن أحمد المطلبيّ الحارثيّ الهمداني النَّباطي الجزّيني (موطناً)، المعروف بالشهيد الأوّل.

ولادته ونشأته: ولد الشهيد الأوّل عام 734هـ في جزّين – جبل عامل -، والدته سيّدة علوية (من العراق)، والده الشيخ مكّي بن محمد بن حامد العامليّ، درس على والده، وتلقّى مبادئ العربية والفقه، كما تتلمذ في جزّين على الشيخ (أسد الدين الصائغ) الجزّيني أبي زوجته وعمّ أبيه.

هجراته العلمية وأساتذته: لم يكتفِ الشهيد بالعلوم التي تلقّاها في مسقط رأسه جزّين، فرحل إلى الحِلّة وكربلاء وبغداد ومكّة والمدينة المنوّرة والشام والقدس. وكان قدس سره قد بدأ مسيرته العلمية تلك ولم يتجاوز سبع عشرة سنة من عمره.

كلمات العلماء فيه: كان الشهيد الأوّل عالماً ماهراً، فقيهاً، محدّثاً، مدقّقاً، ثقة، متبحِّراً كاملاً، جامعاً لفنون العقليات والنقليات، زاهداً عابداً، وَرِعاً، شاعراً، أديباً، منشئاً، فريد دهره، وعديم النظير في زمانه.

وبإمكان القارىء أن يلمس مكانة الشهيد العلمية في نفوس الفقهاء من أساتذته وتلاميذه والمتأخّرين عنه من ما كتبه أستاذه (فخر المحقّقين) في حقّه، حيث قال: «**الإمام الأعظم، أفضل علماء العالم، وسيد فضلاء بني آدم، مولانا شمس الحقّ والدين محمّد بن مكّي بن حامد أدام الله أيّامه!**».

ويقول عنه الشيخ محمّد بن يوسف الكرمانيّ القرشيّ الشافعيّ في إجازته للشهيد:

«المولى الأعظم الأعلم، إمام الأئمّة، صاحب الفضلين مجمع المناقب والكمالات الفاخرة، جامع علوم الدنيا والآخرة».

ويقول الشهيد الثاني فيه: «**شيخنا وإمامنا المحقّق البدل النحرير المدقّق الجامع بين منقبة العلم والسعادة ومرتبة العمل والشهادة، الإمام السعيد أبو عبد الله الشهيد محمد بن مكي أعلى الله درجته، كما شرَّف خاتمته**»[(1)].

شخصيّته وإنجازاته

انحسرت الحالة الشيعية في مصر والشامّ منذ تسلّم الأيوبيين الحكم من الفاطميين. وجاء من بعدهم المماليك ليواصلوا السياسة نفسها. وكانت أيامهم من أشقّ الفترات على الشيعة وبلاد الشام. في هذه الظروف حاول الشهيد الأوّل أن يوصل جبل عامل بمدرسة الحِلَّة وينقل إليها العلم والفقاهة والفكر... فكانت مدرسة جزّين، التي راحت تخرّج الطلاب من مختلف أصقاع العالم الإسلاميّ بالتفقّه على المذاهب الخمسة.

وعُرِف الشهيد الأوّل بانفتاحه الثقافيّ والعلميّ. وكان قد قرأ على عدد من مشايخ أهل السنّة، وروى عن أربعين شيخاً من علمائهم، وكان على صلة وثيقة بالاتّجاهات الفكرية السُنيَّة، وعلى معرفة تامّة بآرائها وأفكارها، ولم يكن منطوياً على نفسه فكرياً.

وقد عمل الشهيد على تنظيم علاقة الأمّة بالفقهاء من خلال شبكة الوكلاء الذين ينوبون عن الفقهاء في تنظيم شؤون الناس في دينهم ودنياهم، كما يقومون بجمع الحقوق الشرعية لتوزيعها على مستحقّيها بنظر الفقيه.

كان الشهيد خلال عمله في جزّين يتردّد على بيت له في دمشق، وكان عامراً بالعلماء وطلبة العلم من مختلف الطبقات والمذاهب.

(1) الآصفي، محمد مهدي، مقدمة الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ج1.

عصر الشهيد الأول وجهادُهُ

لكي ندرس الجانب السياسيّ من حياة الشهيد ودوره في الجهاد وإنجازاته ينبغي أن نطلّ قبل ذلك على الظروف الاجتماعية والسياسية التي عاصرها الشهيد، والاتّجاهات الدينية والسياسية السائدة في عصره، وأهمها:

انحلال الدولة الإسلامية

اتّخذ بنو العبّاس سياسة قاسية تجاه الشيعة والعلويين. وغالى في هذا السلوك المتوكّل العباسي بشكل فظيع. وإذا علمنا أنّ العلويين والشيعة عامّة كانوا من أهمّ عوامل ظهور الدولة العبّاسية وانحلال الحكم الأمويّ، عرفنا كم كانت الشيعة تعاني من هذا السلوك في ظلال الحكم العبّاسي، وكم كان يخالجهم الشعور بالندم على إسناد الحكم العبّاسي وتدعيمه والاغترار بوعود العبّاسيين.

وهذا ما حدا بهم إلى التفكير في الاستقلال عن حكومة بغداد العباسية. ولكن قوّة الحكم العبّاسيّ وامتداد سيطرة العباسيين إلى أطراف البلاد كان يمنع الشيعة من القيام بأيّة محاولة للانفصال والاستقلال، حتّى إذا ظهر الضعف في جهاز الحكم العبّاسي وضعفت سيطرته على البلاد انفصل كثير من البلدان عن الحكومة الأم في بغداد، وكان أصلح الأقطار الإسلامية للاستقلال والانفصال عن الحكم العبّاسيّ إيران والأندلس وإفريقيا.

أمّا الأندلس فقد انفصلت عن الحكم العباسي، حيث فرّ إليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، وملكها من يد عبد الرحمن بن يوسف الفهريّ، وبقي فيها عاماً يخطب للسفّاح، حتّى إذا استقام به الأمر ولحقه أهله من بني أميّة، استقلّ في الحكم، وألغى ذكر بني العبّاس في الخطبة، وكان ذلك سنة 138هـ. وبقيت الأندلس تحت حكم الأمويين إلى سنة 422هـ.

أمّا في إيران وإفريقيا فكان طابع النشاط السياسيّ هو التشيّع، واستطاع الشيعة في

هذين القطرين بشكل خاصّ أن يقوموا بوجوه مختلفة من النشاط السياسي، ويُظْهِروا انفصالهم عن بغداد.

فقد عرف الشيعة في تاريخ الإسلام بالحركة والنشاط الدائمين، ومقاومة الطغيان والاستبداد والانحراف في أجهزة الحكم، الأمر الذي دفع بالسلطان إلى ملاحقتهم في كلّ مكان، ومراقبة حركاتهم ومكانهم أشدّ المراقبة. وحين أخذت الحكومة العبّاسية بالانحراف، ومضت في الضلال، خرج حسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن السبط مع جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحيى، واستولى على المدينة المنورة، وطرد عنها عامل الهادي العبّاسيّ، وكان الموسم موسم حجّ، فخرج هو وأصحابه إلى الحجّ، حتّى إذا بلغوا موقعاً قريباً من مكّة يقال له فخ، أرسل إليهم الحاكم العبّاسيّ جيشاً وضع فيهم السيف حتى قتل جمعاً كثيراً منهم، وفيهم حسين الفخّ نفسه، وكان ذلك في يوم التروية[1]، ونجا منهم فيمن نجا إدريس بن عبد الله ويحيى بن عبد الله؛ أمّا يحيى ففرَّ إلى الديلم والتفّ حوله الناس، فأرسل الرشيد إليه جيشاً بقيادة الفضل بن يحيى، فكاتبه الفضل وأعطاه الأمان، فآثر يحيى السلم على الحرب، وذهب إلى بغداد فأكرمه الرشيد، ثمّ غدر به[2].

دولة الأدارسة (172 – 375)

وقد فرّ إدريس إلى مصر، ومنها إلى المغرب، واجتمعت حوله قبائل البربر وغيرهم، واشتدّ أمره واستمرّ حكم الأدارسة قرنين وثلاث سنين، وامتدّت سلطتهم في المغرب، وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس[3].

وقد استطاع الأدارسة في هذه الفترة أن يخدموا المغرب كثيراً، وأن يخلّفوا تراثاً حضارياً ومدنياً قيّماً، وأن ينشروا التشيّع في هذا القطر من الأرض.

---

(1) راجع: الطبري، ج 10: 24 – 32، وابن كثير 10: 40 وابن أثير 6: 32 – 34.

(2) راجع: مقاتل الطالبيين: 463 – 483.

(3) راجع: الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، ج 3، ص162 – 167.

الفاطميون

وفي سنة 286هـ بعدما ضعفت الدولة العباسية أخذ أبو عبد الله الشيعيّ يدعو لعبيد بن المهدي في «**إفريقيا**» وأخذ البيعة له، وانتزع أفريقيا من بني الأغلب، واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى والشام، واقتطعوا سائر هذه الأقطار من العبّاسيين، واستمرّ حكمهم إلى سنة 567 وامتدّ نفوذهم إلى مصر والحجاز واليمن.

وكان الفاطميون شيعة إسماعيلية، سعوا كثيراً لنشر التشيّع في مصر وإفريقيا والأقطار الأخرى التي كانت تحت يدهم.

وربما جاز لنا أن نقول: إنّ ظهور الفاطميين واستيلاءهم على الحكم وحرصهم على نشر «**التشيّع**» ومعارضة المذاهب الأخرى كان ردّ فعل طبيعياً للعنف والضغط الذي كانت الشيعة تنوء به أيام الحكم العباسيّ.

دول مستقلّة أخرى

استقلّ «**الحمدانيون**» في الموصل وحلب، وامتدّ حكمهم من 317 هـ إلى هـ 394 هـ. وظهر باليمن يحيى بن الحسن بن القاسم «**الرسي**»، وهو ابن إبراهيم طباطبا، وملك صعدة وصنعاء. وظهر «**القرمطيّ**» بنواحي البحرين وعُمان، وسار إليهما سنة 279 هـ أيام المعتضد العبّاسي، واستمرّ حكمهم إلى القرن الرابع.

واستقلّ «**بنو بويه**» في الحكم من سنة 334 هـ، واستمرّ حكمهم إلى سنة 447 هـ، وامتدّ سلطانهم إلى جزء كبير من الوطن الإسلاميّ من «**فارس**» و«**أهواز**» و«**كرمان**» و«**بغداد**» وغيرها، وقد خدم البويهيون التشيّع أيام حكمهم، ونشروا المذهب في إيران والعراق، وخلّفوا تراثاً فكرياً قيّماً من بعدهم، ولسنا بصدد الحديث عنه.

وتأسّست «**الدولة الأيوبية**» سنة 564 هـ، وامتدّ سلطان الأيوبيين أيام «**صلاح الدين**» من النيل إلى دجلة، وفي أيّامهم وقعت الحروب الصليبية المعروفة بين

المسلمين والمسيحيين، وعُرِفت «**الدولة الأيوبية**» بطابعها السنّي المجافي للشيعة.

خلف الأيوبيون في الحكم «**المماليك**». وهذه السلسلة غريبة في وضعها، فقد تعاقب الحكم عليها عبيد من جنسيات مختلفة، واستمرّ سلطانهم نحواً من قرنين وثلاثة أرباع قرن. وكانوا بشكل عام سفّاكين وغير مثقفين[1].

ويقسم المماليك إلى المماليك البحرية «1250م - 1390م» والمماليك البرجية «1382م - 1517م» فالبحرية سُمّوا بذلك نسبة إلى النيل، إذ كانت ثكناتهم تقوم على جزيرة صغيرة في نهر النيل، وكانوا في أكثرهم من الترك والمغول. أمّا البرجية فكانوا في الغالب من الجراكسة.

برقوق

كان «**برقوق**» أوّل عبد وأتابك خاصّ للملك الصالح الحاجي ابن الأشرف بن شعبان، وهو الرابع عشر من ملوك الأتراك مماليك الأيوبية المغلّبين عليهم. وقد تولّى «**الحاجي**» الحكم وهو ابن عشر سنوات، ولم يكن له من الأمر غير الاسم، فألزم «**برقوق**» الأمراء بخلعه، ونصّب نفسه للحكم سنة أربع وثمانين وسبعمئة.

ولكن الأمر لم يصفُ له، فقد انشقّ عليه بعد حين من الزمان أمراء عصره، فخرج عليه «**تمريغ الأفضلي**» و«**بليغ العمري**»، ونزعا عنه الحكم، وملكا مصر، وأُعيد حاجي إلى الحكم مرّة أخرى، وحبس «**برقوق**» بالكرك. ولم يطل الأمر ببرقوق، فقد خرج من السجن وكرّ ثانياً على أعدائه، وجمع الجيوش وتمكّن منهم وأزاحهم عن المسرح، واستقلّ بالأمر إلى أن توفّي سنة 801 هـ[2].

(1) راجع: فليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ،ج 2، ص267.

(2) راجع: سمط النجوم العوالي، ج 4، ص 32.

جهاد الشهيد الأوّل وحضوره الفاعل في دمشق

قضى «**الشهيد**» الشطر الأخير من عمره في دمشق أيّام حكومة برقوق من «**ملوك الجراكسة**» على مصر والشام، وكانت حكومة دمشق يومئذٍ بيد «**بيدمر**» مندوب برقوق. ويبدو من كتب التاريخ أنّ حكومة «**الشام**» لم تكن مرتبطة بحكومة «**مصر**» إلّا اسمياً، فقد كان حاكم دمشق يستقلّ في الحكم والإدارة من غير أن يراجع المركز في شيء من شؤون الإدارة والحكم.

ومهما يكن من شيء فقد قضى «**الشهيد**» جزءاً كبيراً من عمره في دمشق إحدى «**حواضر العالم الإسلامي**» في وقته.

وقُدّر للشهيد أن يكوِّن لنفسه في الشام مكانة اجتماعية وفكرية كبيرة، ويفرض نفسه على مجتمع «**دمشق**» بشكل خاصّ ومجتمع سوريا بشكل عامّ، وأن ينفذ إلى جهاز الحكم - كما سنجد - ويستغلّه لغاياته الإصلاحية؛ فقد كان الشهيد في دمشق على اتّصال دائم بالحكّام والأمراء والشخصيات السياسية البارزة في وقته، ونعرف ذلك من إقناع «**الشهيد**» الحكومة بمحاربة «**اليالوش**» المتنبّي الذي سنبحث عنه فيما يأتي من هذه الرسالة. وكان بيته ندوة عامرة لأصحاب الفضل والعلم وطلّاب المعرفة وعلماء دمشق والأقطار المجاورة الذين كانوا يزورون دمشق بين حين وآخر، أو يمرّون عليها، فكان لا يخلو بيته على الدوام من الزوّار من أصحاب الفضل وأصحاب الحاجة الذين كانوا يقصدونه للتوسّط لتيسير حاجاتهم لدى المراجع الحكومية. وعلى الرغم من توتّر العلاقات بين الشيعة والسنّة فقد كان «**الشهيد**» يحتلّ مكانة علمية مرموقة بين «**علماء السنّة**»، فكانوا يحضرون مجلسه في بيته للاستفادة والمناقشة، ولحلّ مشكلات الفقه والكلام في كثير من الأحيان.

حرص الشهيد الأوّل على الوحدة

ومن حِرص «**الشهيد**» على توحيد الكلمة كان يتجنّب في مجلسه الخوض في مسائل الخلاف بين «**الشيعة**» وإثارة الخلافات الكلامية فيما بينهم على صعيد الجدل، فكان يخفي ما كان بيده من كتابه حين كان يزوره أعلام السنّة في مجلسه، حتى أنّه عُدَّ من كراماته أنّه حينما ابتدأ بكتابة «**اللمعة الدمشقية**» لم يمرّ عليه زائر من علماء السنّة ووجهاء دمشق إلى أن تمّت كتابة هذه الرسالة في سبعة أيام. وهذه الرواية تدلّ على حرص «**الشهيد**» أولاً على عدم إثارة المسائل الخلافية، والمحافظة على وحدة الكلمة بين المسلمين في ظروف اجتماعية مضطربة ذكرنا بعض ملاحمها فيما تقدّم من هذا الحديث، وتدلّ ثانياً على أنّ بيت «**الشهيد**» كان آهلاً بمختلف الطبقات من علماء ووجهاء وشيعة وسنّة من دمشق وخارجها.

ولم يبقَ الشهيد هذه الفترة الطويلة في «**دمشق**» دون عمل ونشاط، بل عمل على الإصلاح، والتوجيه وتوحيد الكلمة، والضرب على أيدي العابثين والمغرضين، فأخمد ثورة «**اليالوش**» المتنبّي، وملأ الفجوات التي كانت تفصل الشيعة عن السنّة، وقلّص حدود الخلافات المذهبية والطائفية. وقد كان الخلاف في وقته قائماً على قدم وساق بين «**السنّة**» و«**الشيعة**»، ومن ورائها كانت الصليبية تغذّيها وتلهمها بمختلف الوسائل. وكانت الحكومات تجد في ذلك كلّه إلهاءً لذهنية المسلمين وتخديراً لنفوسهم.

فتنة اليالوشي: إنّ اضطراب الوضع السياسيّ والاجتماعيّ في البلدان الإسلامية حمل نواة ظهور البدع في التفكير والعقيدة. فقد ظهر من جبل عامل شخص يسمّى محمد اليالوشي، وراح يدعو إلى مذهب يغلب عليه طابع التصوّف، ويبدو أنّه كان متكلّماً بارعاً وخطيباً حذقاً، ومشعوذاً، حيث استطاع أن يشدّ دعوته بعدد من السّذّج، فأربك الوضع. وخاف الشهيد أن تشيع هذه البدعة الجديدة وتتّسع، فاتّصل بالبلاط وأقنع دولة المماليك بضرورة تلافي الأمر قبل أن يستفحل، فَجُهِّزَ جيش اصطدم بعسكر

اليالوشي في النبطية الفوقا، فهُزِموا وقتل اليالوشي وتمزّق شمل أتباعه. لكنّ هذه الهزيمة لم تكن كافية للقضاء على هذه الظاهرة؛ فقد انتقلت زعامة الدعوة الجديدة إلى تقيّ الدين الجبلي الخيامي، ثمّ إلى يوسف بن يحيى، وكان لهذين أصبع في مقتل الشهيد الأوّل وذلك بالوشاية عليه إلى حاكم دمشق المملوكيّ بتدمر، وكذلك قضاة بيروت وحلب ودمشق.

استشهاده

وشى رجال اليالوشي بمحاضر تشتمل على مقالات شنيعة بحقّ الشهيد الأوّل، واتّهموه بميله للنُّصيّريَّة وإباحته الخمر، وغيرها من الافتراءات؛ بهدف التخلّص منه، وأتوا بأكثر من سبعين شاهداً من أنصار اليالوشي، ثمّ أتوا به إلى قاضي الشام، ويذهب بعضهم إلى أنّ موقف القاضي ضدّ الشهيد الأول كان منبعه الحسد، حيث أفحم الشهيد القاضي ابن جماعة في مجمع علمائيّ على مسامعهم، ويقال أيضاً، إنّ هذا القاضي كتب العرائض وأشهد عليها العلماء ورفعها إلى حاكم دمشق حقداً على الشهيد بعد أن أفحمه في المناظرة أمام العلماء، ويقال أيضاً: إنّ العريضة كُتبت بإيعاز من حاكم دمشق بعدما رأى اتّساع أمر الشهيد وقدرته على التأثير في الأوساط العلمية والدينية والاجتماعية، لما كان للشهيد من مكانة علمية وسياسية واجتماعية بين أتباعه. وكان استشهاده في التاسع من جمادى الأولى 786هـ، حيث أفتى برهان الدين المكّي وعباد بن جماعة بقتله بالسيف، ثمّ صلبوه، ثم رجموه، ثمّ أحرقوا جثمانه الطاهر.

وكان لاستشهاده رنّة في قلوب العامليين، فأطلقت عليه الذاكرة الشَّعبيَّة في جبل عامل لقب الشهيد الأوّل لأنّه كان أوّل؛ شهيد يقتل في سبيل العقيدة والمذهب في جبل عامل.

المفاهيم الرئيسة:

1 - ولد الشهيد الأوّل عام 734هـ في جزّين - جبل عامل. والدته سيّدة علوية (من العراق) ووالده الشيخ مكّي بن محمّد بن حامد العامليّ.

2 - لم يكتفِ الشهيد بالعلوم التي تلقّاها في مسقط رأسه جزّين، فرحل إلى الحِلّة وكربلاء وبغداد ومكة والمدينة المنوّرة والشام والقدس.

3 - كان الشهيد الأوّل عالماً ماهراً، فقيهاً، محدّثاً، مدقّقاً، ثقة، متبحّراً كاملاً، جامعاً لفنون العقليات والنقليات. وقد أورد الحرّ العامليّ في كتابه «أمل الآمل» أسماء ما يفوق على العشرين من تلامذته الكبار الذين تصدّروا مقام الاجتهاد.

4 - كان الشهيد يقوم بجهد علميّ في جزّين، ونشاط سياسيّ في دمشق وعمل اجتماعيّ واسع في بلاد الشام وخراسان.

5 - انحسرت الحالة الشيعية في مصر والشام منذ تسلّم الأيوبيين الحكم من الفاطميين، وجاء من بعدهم المماليك ليواصلوا السياسة نفسها وكانت أيّامهم من أشقّ الفترات على الشيعة.

6 - عرف الشهيد الأوّل بانفتاحه الثقافي والعلمي. وكان قد قرأ على عدد من مشايخ أهل السنّة. وعمل الشهيد على تنظيم علاقة الأمّة بالفقهاء من خلال شبكة الوكلاء الذين ينوبون عن الفقهاء في تنظيم شؤون الناس في دينهم ودنياهم.

7 - إنّ اضطراب الوضع السياسيّ والاجتماعيّ في البلدان الإسلامية حمل نواة ظهور البدع في التفكير والعقيدة. فقد ظهر من جبل عامل شخص يسمّى محمد اليالوشي، وراح يدعو إلى مذهب يغلب عليه طابع التصوّف والاعتقاد بوحدة الوجود.

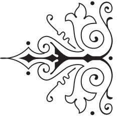
8 - وشى رجال اليالوشي بمحاضر تشتمل على مقالات شنيعة بحقّ الشهيد الأوّل،

واتّهموه بميله للنُّصيّريَّة وإباحته الخمر... وأتوا بأكثر من سبعين شاهداً من أنصار اليالوشي، ثمّ أتوا به إلى قاضي الشام، حيث أفتى برهان الدين المكي وعباد بن جماعة بقتله بالسيف، ثمّ صلبوه، ثمّ رجموه، ثمّ أحرقوا جثمانه الطاهر.

7



الدرس السابع



الشيعة في مواجهة العثمانيين



المقاوم الشيخ ناصيف النّصّار

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يتعرّف إلى تاريخ جبل عامل الجهاديّ في وجه العثمانيين.

2 - يتعرّف إلى شخصية الشيخ ناصيف النصّار الجهادية.

3 - يتعرّف إلى نكبة العامليين على يد الجزّار.

معركة بحيرة الحولة

إنّ طموح علي بك الكبير[1] حاكم مصر وطموح ظاهر العمر[2] جَعلَهما حليفين قويّين، حيث أعدّا جيشاً كبيراً يؤازره حكّام مقاطعات جبل عامل وعلى رأسهم الشيخ ناصيف النصّار[3]، واستعدّوا لقتال باشَويّة الشام بقيادة عثمان باشا والي دمشق. لكن هذا الأخير أقنع قائد جيش مصر محمد أبو الذهب سرّاً أن ينسحب بجيشه كي لا يهرق السلطان دمه إذا ما فرغ من حرب الروس، ففعل ذلك وترك الشيخ ظاهر العمر وحلفاءه وعاد إلى مصر.

اندفع عثمان باشا يجمع الجيوش للقضاء على ظاهر العمر والعامليين، وعَسْكَرَ على بحيرة الحولة في (30 آب 1771م). وعسكَرَ الشيخ ناصيف بجنوده في جوار مقام النبيّ يوشع (جنوبيّ شرقيّ جبل عامل)، وعقد الشيعة ديوان مشورة ورتّبوا خطة بالهجوم على تلك الجيوش، وانتَدَب الشيخ ناصيف فرقة لا تزيد عن خمسمئة فارس،

---

(1) علي بك الكبير؛ مملوكي حكم القاهرة كشيخ البلد (أي حاكم) أيام العثمانيين، وقد استغلّ فرصة انشغال الدولة العثمانية في حربها مع روسيا، فاستصدر أمراً من الديوان بعزل الوالي العثماني، وتولى هو منصب القائمقام بدلاً من الوالي المخلوع.

(2) ظاهر العمر، كان أحد حكّام فلسطين في فترة الحكم العثماني.

(3) الشيخ ناصيف بن نصّار العاملي، شيخ مشايخ جبل عامل، المعروف بالشيخ ناصيف النصّار، قُتل سنة 1195هـ في الحرب التي جرت بينه وبين عسكر الجزّار قرب قرية يارون، ودُفن فيها.
يقال له الشيخ ناصيف النصار جرياً على العادة في إدخال الألف واللام على اسم الأب حين إرادة نسبة الابن إليه. ولفظ الشيخ أحد ألقاب الأمراء في بلاد الشام. فأمراء جبل عامل والأمراء الحماديون وغيرهم كانوا يلقبون بالمشايخ والحرافشة والشهابيون كانوا يوصفون بالأمراء وكانت أمرة جبل عامل لثلاث طوائف فإمرة بلاد بشارة لآل علي الصغير وإمرة بلاد الشقيف للصعبية وإمرة إقليم الشومر لآل منكر وكان يطلق على ناصيف شيخ المشايخ أي أمير الأمراء وكان الشيخ ظاهر العمر الصفدي قد تغلب على إمارة بلاد فلسطين وخلع طاعة الدولة العثمانية وامتدت إمارته أكثر من سبعين سنة كما أن الشيخ ناصيف وباقي أمراء جبل عامل استقلوا بها وكانوا قبل ذلك تابعين لحاكم صيدا مع استقلالهم الداخلي وباعتبار أن بلاد ظاهر مجاورة لمحل أمارة ناصيف كانت تجري بينهما حروب ومنازعات ثم تحالفا.

من أبسل فرسانه وأوفرهم شجاعة، فبيّتت العدوّ، وزحفت إليه ليلاً، فأحاطت به من جهات ثلاث، وأعملت فيهم السيف، ولم ينجُ من القتل إلا من ألقى نفسه في البحيرة، وفرَّ الوالي عثمان باشا منهزماً.

معركة كفر رمّان، النبطية

لم يتّعظ عثمان باشا من هذه الهزيمة، فأوغر صدر الأمير يوسف الشهابي أمير جبل لبنان، وأقنعه بمهاجمة جبل عامل، فدخله في 29 تشرين الأول 1771م من جهة صيدا وجباع متّجهاً نحو النبطية مركز جبل عامل الشماليّ، وراح يحرق القرى ويجتثّ الأشجار حتى وصل إلى مشارف النبطية، فتصدّى له الشيخ علي الفارس، وكتب إلى الشيخ ناصيف يستنجده، شارحاً الخطر الذي تتعرّض له الطائفة الشيعية، وسرعان ما لبّى الشيخ ناصيف، ودارت معركة ضارية ما بين كفر رمّان والنبطية، شارك فيها مشايخ جبل عامل كلّهم بما فيهم الشيخ ناصيف والشيخ علي الفارس والشيخ محمود النّصار والشيخ حيدر الفارس. وانتصر الشيعة بثلاثة آلاف مقاتل على جيش تعدّه المصادر التاريخية بأكثر من عشرين ألفاً. وقبل أن تشارف المعركة على نهايتها وصلت النجدة من الشيخ ظاهر العمر بألف مقاتل، ووقع الأمير يوسف الشهابي أسيراً بيد الشيخ ناصيف النّصار ثمّ عفا عنه. لكنّ انهزام عثمان باشا في معركة بحيرة الحولة وفشل يوسف الشهابي في معركة النبطية، شجّع الشيخ ناصيف والشيخ ظاهر العمر على الاستيلاء على صيدا مركز الولاية، وطردوا واليها درويش باشا ابن عثمان باشا، إلا أنّ درويش هذا، تحقّق أنّه لا طاقة له بمقابلة زعماء جبل عامل وحليفهم الشيخ ظاهر العمر، فرفع عريضة إلى الدولة العثمانية، يذكر فيها تمرّدهم، وتملّكهم صيدا، لكنّ الوقائع التي تلت هذه الشكاوى لم تؤدِّ إلى ما يرضي عثمان باشا؛ لأنّ الدولة كانت عاجزة أولاً، ومشغولة بحربها مع الروس ثانياً.

جبل عامل والجزّار

نكبة جبل عامل على يد الجزّار: شاءت الأقدار أن يصبح الجزّار والياً على صيدا ودمشق وعكّا بعد اغتيال الشيخ ظاهر العمر ما بين 1776م - 1785م. ولمّا استفحل أمر الجزّار ودانت له فلسطين بأكملها، حوّل نظره إلى جبل عامل يريد أن يخضعه لسلطته. وكان جبل عامل يومئذٍ أمنع من عقاب الجوّ، وكان زعيمه الأكبر الشيخ ناصيف النصّار من أشجع رجال عصره. وبنهاية الشيخ ظاهر العمر استولى الأميرال العثماني حسن باشا على عكّا، وسلّمها لأحمد باشا الجزّار فقام هذا الأخير بالاستفادة من تحصيناتها، وسعى إلى التخلّص من أخصامه؛ فقضى أولاً على أولاد الشيخ ظاهر العمر، وحين رأى العامليون ما حلّ بأبناء ظاهر توقّعوا أن تكون الحملة التالية على بلادهم، فبدؤوا بملء حصونهم بالمقاتلين والسلاح، واستعدّوا للقتال. وبالفعل فقد صدق حدسهم، فما لبث القبطان حسن باشا أن اتّفق مع والي صيدا الجديد على تجهيز حملة على جبل عامل، لتهديم قلاعه وحصونه وجمع السلاح، لكنّه خشي انتشار القلاع والحصون في ربوعه، وما عرف عن سكّانه من شجاعة وفروسية ومهارة في القتال وتعلّق بالحرية.

قرار الانتقام من العامليين

شهدت الفترة الممتدّة من 1776م إلى 1781م سلسلة من الفتن الداخلية في جبل لبنان، استفاد منها مشايخ جبل عامل؛ فامتنعوا عن دفع الميري المتوجّبة على بلادهم، فصدر فرمان سلطاني إلى والي صيدا يأمره بالسير إلى جبل عامل وتدميره للأسباب الآتية:

- تمرّدهم أيام ظاهر العمر، ودورهم في هزيمة عثمان باشا والي دمشق.
- غزواتهم على منطقة دمشق.

- امتناعهم عن دفع الميري (الضريبة).
- استيلاؤهم سابقاً على أماكن متعدّدة من ولاية صيدا، مثل شفاعمرو وحيفا وعكا.

على أثر ذلك قرّر الجزّار الاستفادة من الفرمان السلطانيّ لتحقيق مكاسبه باستعمال القوّة والحزم للأسباب الآتية:

أولاً: تعزيز مركزه وزيادة قوّته وإقامة حكم مركزيّ فعّال في الولاية.

ثانياً: القضاء على مراكز القوى المستقلّة؛ لأنّ ذلك يعيق مخطّطاته.

ثالثاً: تحقيق مكاسب مادّية بالسيطرة على جبل عامل الغني بموارده الزراعية والتجارية، والاستيلاء على ثروات مشايخه.

معركة يارون، واستشهاد الشيخ ناصيف

ونظراً لما يعلمه الجزار عن مدى كفاءة وشجاعة السكّان القتالية، ووعورة البلاد وما تتضمّنه من حصون وقلاع، قرّر تجهيز حملة قويّة قادرة على تحقيق آماله. ولمّا دخلت قوّات الجزّار البلاد، خرج الشيخ ناصيف النصّار من قلعة تبنين على رأس ألف فارس للتصدّي للحملة، والتقى العساكر المهاجمة عند قرية يارون الداخلة ضمن بلاد بشارة، وجرى اقتتال بين الفريقين في 23 أيلول 1781م. وأثناء القتال زلّت قدم جواد الشيخ ناصيف على بلاطة يارون فعاجله بعض الجنود بإطلاق الرصاص فخرّ قتيلاً، وقد قُتِل معه أربعمئة من فرسانه، في حين خسر الجزّار ثلث قوّاته، ثمّ تقدّم بعساكره في بلاد بشارة لتحطيم القلاع السبع الرئيسة فيه (هونين، وتبنين، وميرون - ديركيفا - وميس، وصربا، وجباع، وشمع) واستولت العساكر على ميناء صور.

نكبة العامليين على يد الجزّار

خشيَ مشايخ جبل عامل أن يتعرّضوا للذبح والقتل والإهانة، ففرّوا بعيالهم وأنصارهم من الشيعة، واختفى بعضهم في بلاد بعلبك لدى مشايخ آل حرفوش، وبعضهم الآخر في بلاد عكّار لدى محمد بيك المرعبي (الأسعد)، في حين صمد الشيخ حيدر الفارس برجاله الستّمئة في قلعة الشقيف، وفشلت جميع جهود الجند لاحتلال تلك القلعة. من ناحية ثانية اكتسح جنود الجزّار البلاد، وأحرقوا القرى ودمّروا المنازل، ثم شُحنت المكتبات من جبل عامل إلى عكا على ظهور الجمال، وكانت أعظم حادثة، إحراق تلك الكتب النفيسة، كمكتبات آل الأمين في شقرا، وكتب آل سليمان في مزرعة مشرف، وآل خاتون في جويا. وكان يكفي سبباً لإتلاف هذه الكتب كونها مختصّة بالشيعة، بل كونها من كتبهم وإن لم تختصّ بهم. وقد أسرف رجال الجزّار في الشعب قتلاً وذبحاً، وقبض الجزّار على فريق من الوجهاء فأماتهم خنقاً في سجون عكّا. ثمّ هاجم قلعة الشقيف، وكان قائد حاميتها الشيخ حيدر الفارس من الأمراء الصَّعبيّة، حاصره شهرين ثمّ دخلها بالأمان، فقتل جميع من فيها غدراً. ثمّ هاجر العلماء وأهل الفضل للبلاد الإسلامية النائية كالهند والعراق وإيران وبلاد الأفغان، وخدموا فيها الإسلام.

وقد أقفرت قرى عديدة في جبل عامل، وخلَت من سكّانها، وأصبحت أثراً بعد عين.

حرب العصابات

هذه النكبات القاسية، التي تجرّعها العامليون ضروباً من التعسّف والشقاء، حملتهم على الاستبسال والاستماتة في سبيل الدفاع عن حوزتهم، فثار الزعماء وأبناء العشائر وألّفوا العصابات الثورية. وفي عام 1783م اجتمع في قرية شحور جماعة من أعيان البلاد، وقد أعياهم أمر الجزّار وأرهقهم جوره وما أصاب البلاد من شروره،

فأجمع رأيهم على الكفاح وإنقاذ البقيّة الباقية من وطنهم من الدّمار؛ فألّفوا فرقة من رجالهم الأشدّاء للفتك بعمّال الجزّار وجنوده التي كانت ترابط في مناطق عاملة وتحتلّها احتلالاً عسكرياً صارماً، وتلزمها بنفقاتها وعلف خيولها وإعاشتها واحتمال أضرارها وأذاها.

وقد جمعهم الجزّار من شذّاذ الآفاق. وكان على رأس الثورة الشيخ حمزة بن محمد النصّار، ومدير شؤونها الشيخ علي الزين صاحب شحور. وهاجمت الفرقة حاكم البلاد العامّ في تبنين من طرف الجزّار فذبحوه ذبح النّعاج، وأثخنوا أعوانه وجنده، وأخذوا الخزينة الأميرية.

معركة شحور

أرسل الجزار جنوده وزبانيته تتعقّب الثوّار، فداهموهم في قرية شحور، وثارت بينهما حرب دامية استشهد فيها الشيخ حمزة النصار وفرّ من بقي حيّاً. وسار الشيخ علي الزين وإخوانه إلى العراق، وواصل الشيخ عليّ سيره إلى إيران، ثمّ أتى الهند، فاستَوْزَرَهُ أحد ملوكها. ولم تهدأ الأحوال في جبل عامل إلّا بعد هلاك الطاغية الجزّار سنة 1804م. لكنّ حرب العصابات اتّسعت، وامتدّت سلطة الثوار فشملت عكّا وصفد. عندها أيقن الوالي الجديد أنّ جنده سيصابون بالفشل نتيجة اتّساع سيطرة الثوار؛ فاستدعى إلى عكّا الشيخ علي الفارس ليقيمه حاكماً على جبل عامل من قبله، فأبى إلّا بعد الاتّفاق مع الثوّار وإجلاء جيش الأتراك والأرناؤوط عن البلاد وعودتها إلى حالها قبل فتن الجزار. وأخيراً استجاب الوالي سليمان باشا بعد أن عُقد اجتماع بحضور بشير الشهابي، حضره أيضاً الشيخ فارس الناصيف النصّار ممثّلاً جبل عامل وعُفي عن الثوّار وأُعيدت الأملاك المصادرة إلى أصحابها، واستقرّ الوضع حتّى مجيء، إبراهيم باشا المصري سنة 1832م.

تحالف محمّد علي باشا مع الأمير بشير، ومضايقة العامليين

حملة إبراهيم باشا المصري: كان محمّد علي باشا صديقاً للأمير بشير الشهابي، وحليفاً لفرنسا التي أيّدت قيام أمبراطورية (عربية)، تابعة لسياستها ومشاريعها. وقد سقطت سوريا كلّها بيد الجيش المصريّ، وقسّمها الفاتح الجديد إلى مقاطعات ومتسلّميات، وألحق جبل عامل بجبل لبنان، وأميره يومئذٍ الأمير بشير الشهابي الثاني. وقد ولّى هذا الأخير ولده مجيداً إدارة شؤون مقاطعات جبل عامل. وكان شاباً غُرّاً فصبّ جام غضبه على المسلمين الشيعة في جبل عامل وأرهقهم ظلماً، وساق منهم المئات إلى السُّجون. فكان من جرّاء هذا التعسّف أن ثار المسلمون الشيعة في بعلبك وجبل عامل. وكان قائد الثورة في بعلبك الأمير جواد الحرفوشي، وفي جبل عامل حسين شبيب الفارس الصعبي وشقيقه محمد.

لقد صوّر الشهابيّون جبل عامل في عيون المصريين بلاداً ثائرة وشعباً متمرّداً، يجب أن يُحكم بالشدّة والبطش، فصبّوا جامّ غضبهم، ونكّلوا بالزعماء والأعيان، وزجّوا معظمهم في السجون. ومن أجل ذلك كلّه قامت الثورات في جبل عامل ودافع العامليون عن كراماتهم، وقاتلوا قتال المستميت. لكنّ القوات المصرية عادت فألقت القبض على حسين شبيب وعلى عشرة من أتباعه، وأعدمتهم.

أمّا جواد الحرفوش فكان قد التجأ إلى بشير الثاني مستأمناً، فقام هذا بتسليمه إلى السلطات المصرية في دمشق، وبوصوله إليها أمر شريف باشا نائب إبراهيم باشا بإعدام ستّة من أعوانه، بينهم رجل من جماعة شبلي العريان.

مؤتمر دمشق السرّي

عقد هذا المؤتمر للنظر في استقلال سوريا سنة 1877م عندما دارت الدائرة على الدولة العثمانية. فقام وجهاء من جبل عامل وبيروت وصيدا ودمشق بالتعاون مع

علماء من الطائفة الشيعية في جبل عامل، بعدد من الاتّصالات والاجتماعات للبحث في مصير البلاد الشامية، عندما كان الوضع في الدولة العثمانية مضطرباً، والوعي القومي النامي في سوريا، حافزَين أهابا بأهل البلاد ليتداولوا فيما يجب عمله لتجنّب المصير السيّئ، ومن أفجع صوره وقوع احتلال أجنبيّ.

وأسفرت اللقاءات الأولى والاتّصالات عن تشكيل وفد للتباحث مع زعماء دمشق، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر الجزائري وكذلك أُرسلت رسل ووفود إلى حماة وحمص وحلب واللاذقية وحوران، وتمّ الاتّفاق على إجراء اجتماعات سرّية في بيروت لوضع الخطط اللازمة، ثمّ انتقل المجتمعون إلى دمشق لإكمال البحث والمداولة في دار السيد حسن تقي الدين الحمصي. وانتهت هذه الاجتماعات بعدد من المقررات.

اختيار عبد القادر الجزائري ليكون رأس هذه الحركة.

الاعتراف بالخلافة العثمانية (أي بقاء السلطان العثماني خليفة للمسلمين).

إقرار مبدأ السعي لتحقيق استقلال بلاد الشام، وتأجيل البتّ في مدى هذا الاستقلال إلى انتهاء الحرب الروسية – العثمانية، وانجلاء وضع الدولة ومصيرها.

وكان من نتيجة هذا الاجتماع أن فرضت السلطات العثمانية إقامة جبرية على زعماء الحركة في مناطق نائية، كما نفت السيد محمد الأمين أحد أركان الحركة إلى طرابلس.

دور العامليين في الحفاظ على الدولة العثمانية وكيانها

لقد أسهم العامليون إسهاماً فعلياً، كما كان يسهم غيرهم في المنطقة، بصياغة منحى سياسيّ عامّ في دولة المسلمين القائمة، وكانوا على المستوى القوميّ يعملون لما فيه دوام الدولة وتقدّمها. ورغم سمة العامليين الشيعية، فإنّهم لم يختلفوا عن غيرهم من مسلمي السلطنة في تطبيق السياسة العليا للدولة رغم سمتها الإسلامية السنيّة. وإنّ شعورهم المذهبيّ لم يكن ليميّز تطلّعهم السياسيّ عن غيرهم من العرب

أو المسلمين السنّة، لأنّهم كانوا كغيرهم من المسلمين من مختلف الأعراق، لا يكادون يشعرون بغير الجنسيّة الدينية، وظلّوا يعتبرون أنفسهم ككلّ العرب في القرون الأربعة الأولى من عمر السلطنة العثمانية مسلمين وعرباً في آنٍ معاً.



المفاهيم الرئيسة:

1 - جمع عثمان باشا الجيوش للقضاء على ظاهر العمر والعامليين، وعسكر على بحيرة الحولة.

2 - انتدب الشيخ ناصيف فرقة من أبسل فرسانه وأوفرهم شجاعة لا تزيد عن خمسمئة فارس فبيّتت العدو وزحفت إليه ليلاً، فأحاطت به من جهات ثلاث وأعملت فيهم السيف، ولم ينجُ من القتل إلا من ألقى نفسه في البحيرة.

3 - لم يتّعظ عثمان باشا من هذه الهزيمة، فأوغر صدر الأمير يوسف الشهابي أمير جبل لبنان وأقنعه بمهاجمة جبل عامل، فتصدّى له الشيخ علي الفارس، وكتب إلى الشيخ ناصيف يستنجده، شارحاً الخطر الذي تتعرّض له الطائفة الشيعية، وسرعان ما لبّى الشيخ ناصيف، ودارت معركة ضارية ما بين كفررمّان والنبطية.

4 - شاءت الأقدار أن يصبح الجزّار والياً على صيدا ودمشق وعكّا بعد اغتيال الشيخ ظاهر العمر، ونظراً لما يعلمه الجزّار عن مدى كفاءة وشجاعة السكان القتالية، قرّر تجهيز حملة قويّة قادرة على تحقيق آماله.

5 - لمّا دخلت قوّات الجزّار البلاد خرج الشيخ ناصيف النصّار من قلعة تبنين على رأس ألف فارس للتصدّي للحملة، والتقى العساكر المهاجمة عند قرية يارون.

6 - خشيَ مشايخ جبل عامل أن يتعرّضوا للذبح والقتل والإهانة، ففرّوا بعيالهم واختفى بعضهم في بلاد بعلبك لدى مشايخ آل حرفوش. وهاجر العلماء وأهل الفضل إلى البلاد الإسلامية النائية كالهند والعراق وإيران وبلاد الأفغان، وخدموا فيها الإسلام.

7- أرسل الجزّار جنوده وزبانيته تتعقّب الثوار، فداهموهم في قرية شحور وثارت بينهما حرب دامية استشهد فيها الشيخ حمزة النصّار وفرّ من بقي حياً. ولم تهدأ الأحوال في جبل عامل إلّا بعد هلاك الطاغية الجزّار سنة 1804م.

8- صوّر الشهابيّون جبل عامل في عيون المصريين بلاداً ثائرة وشعباً متمرّداً يجب أن يُحكم بالشدّة والبطش. ومن أجل ذلك كلّه قامت الثورات في جبل عامل، ودافع العامليون عن كراماتهم وقاتلوا قتال المستميت.

8



الدرس الثامن

الشيعة بين الحرب العالمية الأولى والاحتلال الفرنسيّ

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف الظروف السياسية المؤثّرة على الشيعة في تلك الفترة.

2 - يعرف الظروف المحيطة بالشيعة بعد الحرب العالمية الأولى.

3 - يدرك موقف العامليين من الاحتلال الفرنسيّ.

لبنان في الحرب العالمية الأولى

ولمّا اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى، سيق الناس للجندية أفواجاً وبدون تمييز، واشتدّ البلاء، وعمّت الفوضى البلاد، واشتدّ نفور الشعب من الدولة، وتربّصوا بها الغوائل. وكان الناس موقنين أنّ أمر الدولة العثمانية سيؤول إلى الخسران؛ لأنّ قوّتها كانت ضعيفة، وجندها جائع، ولأنّ القابضين على زمام الأحكام وذمّة السياسة لا خُلق لهم ولا ضمير ولا وطنية، دأبهم الكيد والدس لبعضهم والاستئثار بالأموال والنفوذ، فكان حتمياً أن تسير هذه الدولة إلى الاضمحلال والتدهور السريع.

أما أئمّة المساجد، وهم علماء البلاد وأبرارها، فلم تعترف سلطات السَّوق بإمامتهم؛ إذ لم يكن ثمّة ما يثبّتها رسمياً، وبذلك أجمعت على سوقهم إلى الجندية مع سواد الناس بكلّ شدّة، وأمعنت في طغيانها تتعقّبهم لا تدّخر في ذلك وسعاً، فذعروا وتواروا، وهال الطائفة أمرهم. ويورد السيّد عبد الحسين شرف الدين في مذكّراته أنّه سعى برفع العرائض إلى العاصمة الآستانة للنظر في ظلامة أئمّة مساجد الشيعة إلى أن فاز بمطلبه، وصدر قرار إعفاء أئمّة المساجد الشيعية من التجنيد الإجباريّ.

جبل عامل بين فيصل والفرنسيين

تمخّضت الحرب العالمية الأولى عن هزيمة الدولة العثمانية، ودخلت جيوش الشريف حسين[1] والحلفاء دمشق في أول تشرين الأول سنة 1918م، ورفع فيصل[2] علمه على المدن

(1) الحسين بن علي: مؤسّس الدولة الحجازية الهاشمية والحاكم قبل الأخير لمكة من الأشراف الهاشميين. أوّل من نادى من الحجاز باستقلال العرب، كان أميراً أو شريفاً لمكة إبان حكم الإمبراطورية العثمانية. ولد في إسطنبول سنة 1270هـ - 1854م وذلك لأن والده نفي إليها. عاد إلى مكة وعمره ثلاث سنوات. قاد الثورة العربية الكبرى التي حرّرت بلاد الحجاز وبلاد الشام والعراق من الدولة العثمانية بتحالف مع الإنجليز ولقّب بملك العرب.

(2) الملك فيصل الأول بن حسين بن علي الهاشمي (20 مايو 1883 – 8 سبتمبر 1933) ثالث أبناء شريف مكة حسين بن علي الهاشمي وأول ملوك المملكة العراقية (1921–1933) وملك سورية (مارس –1920 يوليو 1920). ولد في مدينة الطائف وتربى مع إخوته بكنف أبيه حسين بن علي الهاشمي. تعامل مع جمال باشا بشكل حذر جداً حتى لا يثير شكوكه وارتيابه في حركة التمرّد التي كان يخطّط لها والده بالتعاون مع بريطانيا. وعلى الرغم من توتّر العلاقة بين فيصل وجمال باشا فقد استأذنه فيصل للعودة إلى مكة، فوافق جمال باشا على طلبه. فعاد إليها فيصل قبل قيام الثورة العربية بشهر.

الرئيسة في سوريا، وشُكّلت فيها حكومات عربية، فكان لذلك صدى كبير في جبل عامل. وقد ظهر ذلك من خلال الحماس الذي شهدته المنطقة بعد التخلّص من النير التركيّ، وفي مظاهر البهجة التي عمّت المنطقة عامّة، حيث لم يُخْفِ المواطنون، كلّ المواطنين، ارتياحهم لهزيمة الأتراك... لأنّ سكان المنطقة عامّة عانوا من ظلم الأتراك ومن تعصّبهم المذهبيّ والطائفيّ، حيث كان الشيعة والمسيحيون يُعتبرون مواطنين من درجة ثانية وثالثة.

وقد غادر الأتراك منطقة جبل عامل بعد أن تركوا مستودعاتهم في صور مملوءة بالأسلحة والذخائر والمواد الغذائية الخاصّة بالعسكر... فاستولت عليها عائلة آل الخليل، ووزّعوها على الأهالي، والمؤونة كانت تكفي لأكثر من سنة.

الحلفاء يحتلّون البلاد

لم يتأخّر الحلفاء بدخول البلاد، فوصلت الحملة العسكرية بقيادة المارشال هنري اللنبي إلى صور قادمة من فلسطين باتّجاه صيدا وبيروت فحلب. وبدأت نوايا المستعمرين الجدد تظهر جليّة من خلال منعهم للاجتماعات العامّة والمظاهرات والتهديد بالجزاء للمخالفين.

وبدأ العرب يشعرون أنّ وعود الحلفاء لم تكن سوى سراب يحسبه الظمآن ماءً. وقد أشار السيد عبد الحسين شرف الدين إلى ذلك بقوله: «**في أعقاب تلك الحرب... انتهت فلسطين إلى الاحتلال الإنكليزيّ، وانتهت دمشق إلى الإمارة الهاشمية برئاسة فاتحها فيصل، وكان نصيبنا من التقسيم يومئذ نصيباً لم تجرِ فيه الرياح كما كنّا نشتهي، وكما كنّا نقدّر، ولكن ابتدأ نشاطنا على كلّ حال وفق آمالنا التي كنّا نعلّقها على ما بعد الحرب، وبدأ العمل في هذه البلاد بإنشاء حكومات مؤقّتة تحفظ الأمن باسم الملك حسين، وكان هذا باتّفاق معه... فأنشأنا في صور يومئذ حكومة على هذا الغرار. لكن الإنكليز أبطلت هذا التدبير الذي رجوناه لمستقبل عربيّ مستقلّ. وإذا اجتاحت في مرورها ما بنيناه من هذا الكيان الناشىء، ولم تعترف بشيء من هذا الجهد المؤمّل، وبذلك شُطب على الخطوة الأولى، ومُهّد لفرنسا أن تسيطر وتحتلّ باتّفاق مع عصبة الأمم التي كانت توجّه السياسة العالمية. ولكن ما كان لنا ولسائر المخلصين للدين والقومية والوطنية أن نستكين للقوّة**».

تنبّه العامليين لسياسة الحلفاء

عندما دخل الفرنسيون والإنكليز إلى جبل عامل، اعتبر الوطنيون العامليون أنّ الحلفاء سيمنحونهم الاستقلال التامّ، خصوصاً بعد أن شجّعوا على إقامة حكومات محلّية في سوريا والعراق. لكن هذه الحكومات أصبحت منشأ صراع بين أطراف الإقطاع السياسيّ والزعامات المحلّية التقليدية. إلّا أنّ هذا الصراع لم يمنع السياسيين في جبل عامل من معارضة فرنسا والمطالبة بالاستقلال عنها. وعندما تكشّفت نوايا الحلفاء، وراحت فرنسا تكيد للسوريين واللبنانيين بمن فيهم العامليين، اندلعت الحروب والمعارك في جبل عامل، وبدأت الفرق الفرنسية بالتقهقر في بعض المواقع، وحصرت عساكرها في المدن الهامّة.

سايكس - بيكو، مؤامرة فرنسية - إنكليزية لتقسيم البلاد[1]

ويظهر من خلال تسارع الأحداث أنّ غورو[2] حاول أن يثني العامليين عن توجّههم وعزيمتهم بالانضمام إلى الحكومة العربية الفيصلية في سوريا، خصوصاً أنّ رفع العلم العربي في بيروت لأوّل مرّة كان له ردّة فعل إيجابية لدى معظم المواطنين، وردّة فعل سلبية لدى الحلفاء الذين لم يرتضوا برفع علم عربيّ فوق أرض عربية يعتبرونها

(1) **اتفاقية سايكس بيكو**: كانت تفاهمًا سريًا بين فرنسا والمملكة المتحدة بمصادقة من الإمبراطورية الروسية على اقتسام الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا لتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا بعد تهاوي الإمبراطورية العثمانية، المسيطرة على هذه المنطقة، في الحرب العالمية الأولى. تم الوصول إلى هذه الاتفاقية بين نوفمبر من عام 1915 ومايو من عام 1916 بمفاوضات سرية بين الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو والبريطاني مارك سايكس. تم الكشف عن الاتفاق بوصول الشيوعيين إلى سدة الحكم في روسيا عام 1917، ما أثار الشعوب التي تمسّها الاتفاقية وأحرج فرنسا وبريطانيا.

تم تقسيم الهلال الخصيب بموجب الاتفاق، وحصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الجناح الغربي من الهلال (سوريا ولبنان) ومنطقة الموصل في العراق. أما بريطانيا فامتدت مناطق سيطرتها من طرف بلاد الشام الجنوبي متوسّعا بالاتجاه شرقًا لتضم بغداد والبصرة وجميع المناطق الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة الفرنسية في سوريا. كما تقرّر أن تقع فلسطين تحت إدارة دولية يتم الاتفاق عليها بالتشاور بين بريطانيا وفرنسا وروسيا.

(2) **غورو**: الجنرال هنري جوزيف أوجين غورو، بالفرنسية: (Henri Joseph Eugène Gouraud) ولد في باريس انتسب إلى المدرسة العسكرية في سان سير Saint-Cyr وتخرج فيها برتبة ضابط عام 1888م، وهو القائد العسكري الفرنسي الذي قاد الجيش الفرنسي في نهاية الحرب العالمية الأولى في الحرب التركية الفرنسية (1919 - 1923). واشتهر الجنرال غورو بكونه المندوب السامي للانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا، وبكونه من تولّى إعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 بعد فصله عن سوريا بموجب اتفاقية سايكس- بيكو بين فرنسا وبريطانيا.

هم تحت سيطرتهم ومسرحاً لتحقيق أحلامهم واستغلال ثروتها، وطلب قائد القوات البريطانية من شكري الأيّوبي أن ينزل العلم العربي وينسحب، وهكذا حُلّت الحكومات العربية المؤقّتة في النبطية وصور وصيدا. ولما احتجّ فيصل على ذلك، أجابه اللنبي بأنّ هذه الإجراءات ستكون مؤقّتة؛ فسحب فيصل الحكّام والممثلين الذين كان قد أرسلهم إلى أقضية ولاية بيروت ولبنان، لكنّه سرعان ما تفاجأ بورود بَرْقيّة من اللنبي يطلب فيها تسليم أقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا إلى المنطقة الفرنسية.

اتّحاد العامليين حول فيصل

وقد عبّر جبل عامل عن تأييده لفيصل في اجتماع حاشد عقد في دار الحكومة في دمشق، وكذلك عن تأييده للثورة العربية الكبرى، وذلك من خلال الوفد الكبير الذي أرسله العامليون إلى دمشق. وقد مثّل جبل عامل في التعبير عن موقفه الشيخ عبد الحسين صادق، الذي قال: «**إنّني باسم أهل جبل عامل أبايعك على الموت**»... والواضح أنّ كلام الشيخ هذا هو خير تعبير عن مدى اندفاع العامليين على طريق الوحدة السورية. وفي هذه الفترة كانت الولايات المتّحدة الأميركية قد اقترحت تأليف لجنة تحقيق مكلّفة باستقصاء مطالب الناس المعنيين بهذا الأمر، فإنّ عصبة الأمم كانت قد صدّقت على نظام الانتداب، ولم يكن فيصل قد توصّل إلى توقيع اتّفاق مع كليمنصو.

وفي أثناء ذلك كانت قد نشبت معارك عديدة بين القوّات العربية والقوّات الفرنسية. وبدأت العصابات المسلّحة (الثوار) بالظهور وارتفعت حدّة التوتر. ليس هذا فحسب، بل جاءت البيعة لفيصل على لسان معظم زعامات جبل عامل ووجهائه السياسيين والدينيين على حدٍّ سواء، حيث إنّ السيد عبد الحسين شرف الدين بعث بخطاب للأمير فيصل يؤكّد فيه على مبايعته بالإمارة وتهنئته بالعودة، وذلك باسمه وباسم جبل عامل. أمّا بشأن الحكومة العربية المستقلّة، فإنّ العامليين كانوا يظاهرون فيصل على إنشائها.

موقف العامليين من الاحتلال الفرنسيّ

كان استقبال جبل عامل للاحتلال الفرنسيّ، استقبالاً صاخباً محتجّاً، يواجهه بالرفض والمصارحة، والميل عنه ميلاً لا هوادة فيه ولا لين.

وفي هذه الأثناء كانت لجنة كينغ كراين(1) قد وصلت إلى صور للتحقّق من رأي العامليين، فكانت مواقفهم واضحة ومميّزة أمام هذه اللجنة. ويذكر السيد شرف الدين: «**أنّ بلاد عاملةِ أجمعت على أن يمثّلها لدى اللجنة اثنان، هما شيخ العلماء المقدّس الشيخ حسين مغنية والسيد عبد الحسين شرف الدين**».

ومنعاً لكلّ لبس لدى المترجم، ودفعاً لأيّ تقوّل من الذين يحرّفون الكلام عن مواضعه، قدّم السيد مذكرة جبل عامل للجنة كينغ – كراين، وجاء فيها ما يلي:

أولاً: لا نرضى بغير استقلال سوريا التامّ الناجز بحدودها الطبيعية التي تضمّ قسميها الجنوبيّ (فلسطين) والغربيّ (لبنان)، وكلّ ما يعرف ببلاد الشام دون حماية أو وصاية.

ثانياً: تكون الدولة ملكية، ذات عدالة ومساواة، يستوي فيها جميع الناس كافّة في الحقوق والواجبات.

ثالثاً: الأمير فيصل بن الحسين هو مرشّح العرب الطبيعيّ لملك سوريا، لما له من جهاد في سبيل القضية العربية.

رابعاً: لا حقّ إطلاقاً لما تدّعيه فرنسا في أيّ بقعة من سوريا، ولا تُقبل أيّ مساعدة منها.

خامساً: إذا كان لا بدّ لسورية من مساعدة فإنّ الرئيس ولسن قد فتح باباً معقولاً لطلب المساعدة من أميركا وذلك بإعلانه أنّ القصد من دخول الحرب إنّما كان للقضاء على فكرة الفتح والاستعمار.

---

(1) **لجنة كينغ - كراين (بالإنجليزية**: King-Crane Commission): هي لجنة تحقيق عيّنها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون في أثناء انعقاد مؤتمر الصلح في باريس عام 1919م للوقوف على آراء أبناء سورية وفلسطين في مستقبل بلادهم. وقد اختار ويلسون لرئاسة هذه اللجنة هنري كينغ، رئيس كليّة أوبرلين بولاية أوهايو، وتشارلز كراين، وهو رجل أعمال بارز من شيكاغو. وبعد أن طافت هذه اللجنة في مختلف المدن السورية (وبضمنها مدن فلسطين) ما بين 10 حزيران و 21 تموز وضعت تقريراً أعلنت فيه أنّ الكثرة المطلقة من العرب تطالب بدولة سوريّة مستقلّة استقلالاً كاملاً، وترفض فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

المفاهيم الرئيسة:

1 - لمّا اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى، سيق الناس للجندية أفواجاً وبدون تمييز. ولم تعترف سلطات السَّوق بإمامة أئمّة المساجد؛ إذ لم يكن ثمّة ما يثبّتها رسمياً وبذلك أجمعت على سوقهم مع سواد الناس.

2 - تمخّضت الحرب العالمية الأولى عن هزيمة الدولة العثمانية، ودخلت جيوش الشريف حسين والحلفاء دمشق.

3 - لم يتأخّر الحلفاء بدخول البلاد، فوصلت الحملة العسكرية إلى صور قادمة من فلسطين نحو صيدا وبيروت فحلب.

4 - بدأ العرب يشعرون أنّ وعود الحلفاء لم تكن سوى سراب يحسبه الظمآن ماءً.

5 - عندما دخل الفرنسيون والإنكليز إلى جبل عامل، اعتبر الوطنيون العامليون أنّ الحلفاء سيمنحونهم الاستقلال التامّ.

6 - يظهر من خلال تسارع الأحداث أنّ غورو حاول أن يثني العامليين عن توجّههم وعزيمتهم بالانضمام إلى الحكومة العربية الفيصلية في سوريا.

7 - لقد عبّر جبل عامل عن تأييده لفيصل في اجتماع حاشد عقد في دار الحكومة في دمشق، وكذلك عن تأييده للثورة العربية الكبرى.

8 - أرسل العامليون وفداً كبيراً إلى دمشق، وقد مثّل جبل عامل في التعبير عن موقفه الشيخ عبد الحسين صادق.

9 - كان استقبال جبل عامل للاحتلال الفرنسيّ استقبالاً صاخباً محتجّاً، يواجهه بالرفض والمصارحة، والميل عنه ميلاً لا هوادة فيه ولا لين.

9



الدرس التاسع



مقاومة شيعة لبنان للاحتلال الفرنسيّ



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يتعرّف إلى أسباب قيام ثورة جبل عامل ضد الفرنسيين.

2 - يعرف الدور الجهاديّ لِـ «صادق حمزة» في مواجهة الفرنسيين.

3 - يعرف الدور الجهاديّ لِـ «أدهم خنجر» في مواجهة الفرنسيين.

توتّر الأوضاع بين الفرنسيين والعامليين

تكشّفت نوايا الفرنسيين عندما راحوا يكيدون للسوريين واللبنانيين معاً، واندلعت الحروب والمعارك في جبل عامل، بين الثوار العامليين بقيادة صادق حمزة الفاعور[1] وأدهم خنجر[2]

---

(1) **صادق حمزة الفاعور:** أحد قادة حركة المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام بعد الحرب العالمية الأولى. برز اسمه مع المناضل الآخر أدهم خنجر، وقد حضر مؤتمر وادي الحجير الذي دعى إليه العلامة عبد الحسين شرف الدين. و قد استشهد صادق حمزة الفاعور عام 1926. ويعتبر الشهيد صادق رمزا للتعبير عن معاناة العامليين الذين أرهقتهم السلطات العثمانية، وكان أيضا معبّرا عن رفض العامليين للاستعمار الفرنسي وعملائه . والشهيد من مواليد دبعال عام 1894م. وهو ابن الشيخ علي حمزة الفاعور الذي كان يعلّم القراءة والكتابة في منزله. وقد تميّز منذ صغره بصدقه ووفائه وشجاعته وحبه للضعفاء وعندما كبر ورأى كيف أن قريته والقرى المجاورة تتعرض لاعتداءات الأتراك بسلب المحاصيل والحرّيات والتجنيد الإجباري للشباب، ترك هذا الأمر في نفسه تأثيرا عظيماً وجعله يلجأ إلى المقاومة في البراري والكهوف والوديان. وبدأ الشهيد مقاومته في البداية حين كان يتولى رعي قطيع له إذا به مداهما من قبل جنديين تركيين أسراه وساقاه إلى مدينة صور ليلتحق بالجيش التركي. ولكنّه سرعان ما هزمهم على الطريق وفر منه بعد أن جرّدهم من أسلحتهم، والتحق هو بالمقاومة والتي كان فيها أخوه حسين يقود بعض المجموعات، وما لبث أن أصبح أحد قادتها في جبل عامل، وعندما اشتدّت قوته لم تعد تجرأ القوات التركية على دخول مناطق نفوذه، ولم يعد يجرأ مأمورو المالية والدرك على الدخول إلى منطقته، وأصبح يفرض الضرائب على المهاجرين والأغنياء، ويغير على قوافل الجيش التركي، فيصادر منها ما تحمل من مؤن ويوزّعها على الفقراء، خاصّة أيام المجاعة سنة 1915. وعندما دخل الحلفاء لبنان قام الفرنسيون بمحاولة إغرائه للتعامل معهم، إلا أنّه رفض؛ فطاردوه وكانت بينهم وبينه عدّة معارك. ونشأت خلال هذه المرحلة الجديدة عدّة فرق مسلحة قاومت الغزو الفرنسي، منها فرقة محمود أحمد بزّي من بنت جبيل، وأخرى بقيادة أبي زكي، وأخرى بقيادة شبلي، وفرقة أدهم خنجر.

(2) **أدهم خنجر الصعبي:** إسّمه أدهم بك خنجر، وتربطه علاقة قربى وثيقة بحسن بك الدرويش، أحد كبار مقاومي الجنوب اللبناني، ورجالات النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي. وهو مقاوم وثائر لبناني من جنوب لبنان. قاد حركة المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام، تكبّد خلالها الفرنسيون خسائر جسيمة، وذلك بالتنسيق مع الثائر العاملي الآخر صادق حمزة الفاعور. ولد أدهم خنجر ونشأ في بلدة المروانية قضاء صيدا منطقة الزهراني. وقد بدأ شرارة المقاومة عقب مؤتمر وادي الحجير، في جبل عامل (جنوب لبنان) عام 1920م الذي ألقى فيه العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين خطبة تاريخية تدعو لمقاومة الاحتلال الفرنسي ووأد الفتن جاء فيها: «أيّها الفرسان المناجيد، إنّ لهذا المؤتمر ما بعده، وسيطبق نبؤه الآفاق السورية ويتجاوب صداه في الأقطار العربية، ويتجاوزها إلى عصبة الأمم، وقد امتدت به إليكم الأعناق، وشخصت الأبصار، فانظروا ما أنتم فاعلون. يا فتيان الحميّة المغاوير، الدين النصيحة، ألا أدلّكم على أمر إن فعلتموه انتصرتم، فوّتوا على الدخيل الغاصب برباطة الجأش فرصته، واخمدوا بالصبر الجميل الفتنة؛ فإنّه واللّه ما استعدى فريقا على فريق إلا ليثير الفتنة الطائفية، ويشعل الحرب الأهلية حتى إذا صدق زعمه وتحقّق حلمه، استقرّ في البلاد تعلّه حماية الأقليات. ألا وإنّ النصارى إخوانكم في اللّه وفي الوطن وفي المصير؛ فأحبّوا لهم ما تحبّون لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيّكم... إخواني وأبنائي، إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية، ويأبى إلا الاستقلال التام الناجز... فاركبوا كل صعب وذلول صادقي العزائم، متساهمي الوفاء، وما التوفيق إلا باللّه، يؤتي النصر من يشاء... عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير». حاول أدهم خنجر اغتيال الجنرال هنري غورو، المندوب السامي للاحتلال الفرنسي على لبنان وسوريا، في الثاني والعشرين من شهر حزيران لعام 1921م أثناء مروره في القنيطرة، إلا أن الرصاصات التي أطلقها أدهم خنجر استقرّت في ذراع الجنرال غورو الاصطناعية وتسبب ذلك في نجاته. ولجأ أدهم خنجر إلى سلطان باشا الأطرش، الذي كان في رحلة صيد. لكنّ الفرنسيين اعتقلوا أدهم بك خنجر في 7 تموز 1922م في غياب سلطان باشا، ممّا اغضب سلطان باشا الأطرش عندما علم بأمر ضيفه، فكان اعتقال خنجر دافعا جديدا فجّر غضب رجال الثورة السورية الكبرى والثوار الدروز في جبل العرب ضدّ الاستعمار الفرنسي. أعدم الفرنسيون الثائر البطل في العام 1922م في بيروت. ولا يزال البيت الذي نشأ فيه أدهم خنجر في المروانية قائما حتى يومنا هذا.

من جهة، والفرنسيين وأتباعهم المحلّيين من جهة ثانية. وبدأت الفرق الفرنسية بالتقهقر في بعض المواقع، وحصرت عساكرها في المدن الهامّة. وفي هذا الخضمّ استقبل الناس في جبل عامل نبأ تتويج فيصل ملكاً على سوريا المستقلّة، في 3 آذار سنة 1920م، استقبالاً حسناً. أمّا الفرنسيون فقد حاولوا جمع العرائض لصالحهم قبل أن ينقضي موعد مؤتمر سان ريمو[1]. ولا بدّ أنّهم اغترّوا بنجاحهم الأخير، فتوجّهوا إلى حلفائهم من بعض الشيعة، وطلبوا منهم أن يقوموا بحملة توقيع اعتراضاً على مملكة فيصل، إلّا أنّهم لاقوا الرفض ورفضوا أن يمرّروا العريضة؛ إذ لم يكن باستطاعة هؤلاء - وهم من الزعماء - أن يخالفوا الشعور السائد لدى الناس. ولئن كان تتويج فيصل، وهو من الهاشميين، حدثاً سياسياً، فقد اتّخذ صبغة دينية في نظر العامليين؛ فكيف للمؤمنين العاديين أن يفضّلوا دولة أجنبية على ملك عربيّ، وله فوق ذلك صفة مقدّسة؟

صادق حمزة الفاعور وأدهم خنجر يقودان الثورة ضدّ المستعمر

العصائب[2] العاملية في مواجهة الفرنسيين: تزامن انفجار الثورة في جبل عامل سنة 1920م ضدّ الفرنسيين مع انفجار الثورة في العراق ضدّ الإنكليز. وما إن اندلعت

(1) **معاهدة سان ريمون:** في عام 1920م تم توقيع معاهدة سان ريمو، التي حدّدت مناطق النفوذ البريطانية والفرنسية في المشرق العربي. ونتيجة لموقف إنكلترا وفرنسا من مقرّرات المؤتمر السوري العام المنعقد في 1920م فقد انعقد المجلس الأعلى للحلفاء، الذي يعتبر امتداداً لمؤتمر لندن المنعقد في (فبراير) 1920م في مدينة سان ريمو الإيطالية، في المدّة ما بين التاسع عشر والخامس والعشرين من نيسان (أبريل) 1920م للبحث في شروط الحلفاء للصلح مع تركيا طبقاً لمعاهدة سيفر، والمصادقة عليها بعد إعلان سوريا استقلالها ومناداتها بالأمير فيصل ملكاً عليها في المؤتمر السوري العام في الثامن من آذار (مارس) 1920م. وقد بحث المؤتمر:معاهدة سيفر التي رسمت مستقبل المنطقة العربية التي تضمّ العراق وسوريا بما فيها لبنان والأردن وفلسطين.
والتقسيمات والانتدابات حسب مصالح دول الحلفاء، بحيث تقسم سوريا الكبرى أربعة أقسام: سوريا، ولبنان، والأردن، وفلسطين.
وتكون سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين والأردن تحت الانتداب البريطاني، بالإضافة إلى العراق.
وقد تسبّب وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، في اندلاع صدامات واسعة بين اليهود والعرب في مدينة القدس. فكان ملخّص نتائج المعاهدة ما يلي:
1 -وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.
2 -وضع العراق تحت الانتداب الإنكليزي.
3 -وضع فلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب الإنكليزي، مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور.

(2) العصابة بكسر العين، من عصب الشيء إذا شدّه ليقوى، جمع عصائب.

المعارك في جبل عامل بين الثوّار والفرنسيين حتّى أصدر المراجع الكبار في النجف الأشرف الفتاوى بضرورة التصدّي للاستعمار الإنكليزيّ في العراق. وقد خرجت ثلّة من المجاهدين العامليين بقيادة صادق وأدهم بعد الوقفة العلمائية المشرّفة، التي أكّدت على حضور الجهاد العامليّ الإسلاميّ العميق الجذور الممتدّ إلى كربلاء الإمام الحسين عليه السلام. لقد استجابت عصبة من الطلائع المؤمنة المجاهدة في جبل عامل، وحملت ما تيسّر من السلاح للدفاع عن حياض الجبل الأشمّ، حماية لدينهم، وصوناً لكراماتهم وأعراضهم وحرماتهم، مستلهمين بذلك ماضي الأجداد المشرّف في مواقع: البحرة وكفر رمّان وسهل الغازيّة ويارون وصور وأنصار وعيناثا، وغيرها من ساحات الشرف والعزّ، سائرين على خطاهم؛ لأنّهم ما استكانوا يوماً لفاتح، ولا استسلموا لغاصب أو معتدٍ، وكانت حياتهم ترخص دون كراماتهم وحريتهم، لا يأبهون بالنوائب إن وقعت، ولا بالحروب، حتّى وإن كثرت عدّتها أو عددها، وراحوا يرابطون في شعب الأودية وعلى مفارق الطرقات، يكيلون بالعدوّ ضرباً ونكيلاً، رافضين تسلّطه وما يسمى استعماره[1].

دور العصائب العاملية

إنّ هذه العصائب كانت التعبير الحسّي عن ثورة العامليين، وإن كانت قد اتّخذت أشكالاً من الفوضى في بعض المراحل الزمنية حيث يكن لها زعيم يروّضها ولا مفكّر يرشدها ولا أدوات لتنظيمها. وقد أدّى تطوّر هذه العصائب إلى تغيير حقيقيّ في تقسيمات المناطق في جبل عامل لناحية النفوذ والسيطرة. وكانت عصائب صادق حمزة منظّمة تنظيماً جيّداً، حيث أنشأت حكومات صغيرة مستقلّة، كانت تحكم في حماها، وظلّت فرق الإمداد في جيش فيصل تدعم هذه العصابات طالما كانت تقاتل

(1) كانت أقوى العصابات برئاسة صادق الحمزة الذي رفع العلم العربيّ في عديسة وبليدا والطيبة. وقد حظي بالشهرة إذ قام بالكثير من الأعمال الباهرة.

لحساب الحكومة العربية، فكانت تمدّها بالسلاح وتُلحق بها ضابط ارتباط. لم تكن هذه الظاهرة منفردة، بل إنّها كانت تخضع لاستراتيجية مفادها أنّ الحكومة العربية كانت في وضع لا يسمح لها بإعلان الحرب رسمياً على الفرنسيين، فرأت أن تدعم العصائب التي كانت تجهز عليهم تدريجياً. أضف إلى ذلك أنّ العصائب العاملية كانت تناضل في وجه الاحتلال، وتلقى دعم عصابات البدو في منطقة سهل الحولة في فلسطين والجولان الواقعة تحت السيطرة البريطانية.

المفاهيم الرئيسة:

1 - تكشّفت نوايا الفرنسيين عندما راحوا يكيدون للسوريين واللبنانيين معاً. واندلعت الحروب والمعارك في جبل عامل، بين الثوّار العامليين بقيادة صادق حمزة الفاعور وأدهم خنجر من جهة والفرنسيين وأتباعهم المحلّيين من جهة ثانية.

2 - تزامن انفجار الثورة في جبل عامل سنة 1920م ضدّ الفرنسيين مع انفجار الثورة في العراق في ضدّ الإنكليز.

3 - ما إن اندلعت المعارك في جبل عامل بين الثوّار والفرنسيين حتّى أصدر المراجع الكبار في النجف الأشرف الفتاوى بضرورة التصدّي للاستعمار الإنكليزي في العراق.

4 - كانت أقوى العصائب برئاسة صادق الحمزة الذي رفع العلم العربي في عديسة وبليدا والطيبة. وقد حظي بالشهرة؛ إذ قام بالكثير من الأعمال الباهرة.

5 - إنّ هذه العصائب كانت التعبير الحسّي عن ثورة العامليين، وإن كانت قد اتّخذت أشكالاً من الفوضى الوطنية التي لم يكن لها زعيم يروّضها ولا مفكر يرشدها ولا أدوات لتنظيمها.

6 - أدّى تطور هذه العصائب إلى تغيير حقيقيّ في تقسيمات المناطق في جبل عامل.

10



الدرس العاشر



العلّامة السيّد عبد الحسين شرف الدين في مؤتمر وادي الحجير



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف ظروف وأسباب عقد مؤتمر وادي الحجير.

2 - يعرف دور السيد عبد الحسين شرف الدين في مؤتمر وادي الحجير.

3 - يدرك النتائج التي ترتّبت على مقرّرات مؤتمر وادي الحجير.

لماذا عُقِد مؤتمر وادي الحجير[1]؟

اختير وادي الحجير مكاناً لاجتماع العامليين بكل شرائحهم: الزعماء والعلماء والوجهاء، نظراً لتوسّطه البلاد العاملية، ولأنّ الثوّار كانوا يسيطرون عليه، زيادة على أنّه كان صعب المنال على الجيش الفرنسي وقد تداعوا للبحث في الموقف السياسيّ من جميع جوانبه، والنظر في مصير البلاد العاملية على نحو تطمئنّ إليه الجماعة القلقة. ففي يوم السبت 24 نيسان سنة 1920م عُقد المؤتمر. وكان العلماء والزعماء والثوّار حاضرين، وقد ألقى العلامة الكبير السيد عبد الحسين شرف الدين خطاب الافتتاح مذكّراً بالموقف الحرج. وكان لخطابه أثره في النفوس رفضاً وكرهاً لسياسة فرنسا المتّبعة.

التداول والمقرّرات

لقد كان كلام السيد عنيفاً ويهدف إلى تعبئة العواطف ضدّ الفرنسيين. وقد عبّر بذلك عن وجهة نظر المؤتمرين حول استقلال جبل عامل ضمن المملكة السورية التي دعوا إليها باسم الوحدة السورية. ثمّ حثّ على التضامن والاتّحاد، وبيّن عاقبة

---

(1) **مؤتمر وادي الحجير**: هو الاجتماع الحافل الذي دعا إليه العلّامة السيد عبد الحسين شرف الدين، وحضره وجهاء وثوّار جبل عامل في نيسان/ابريل من العام ألف وتسعمئة وعشرين ميلادية . وانعقد المؤتمر في منطقة وادي الحجير، أو ما بات يعرف بمقبرة الميركافا الإسرائيلية بعد عدوان 2006م على لبنان، وذلك بعيداً عن أعين الاحتلال الفرنسي. وكان الهدف منه إطلاق المقاومة ضدّ الانتداب وضدّ تقسيم الوطن العربي. والمعروف جداً لدى العامّة أنّ السيد عبد الحسين شرف الدين كان محور ورجل مؤتمر الحجير الذي قرّر الاستقلال التّام والانضمام إلى الوحدة السورية بزعامة الأمير فيصل. ولكنّ المجهول عند عامّة الناس أيضاً الجهود الحثيثة التي بذلها السيد عبد الحسين شرف الدين على قدميه لاستنهاض الجماهير لجمع التواقيع. وكان من الحضور المناضلان أدهم خنجر الصعبي و صادق حمزة الفاعور .

الاختلاف والفوضى التي تفسح المجال للقول إنّنا لا نستطيع التمرّس بالحكم الذاتي، ومن هنا يأخذ المستعمر طريقه إلينا. وحثّ على المحافظة على الأمن في البلاد عامّة وتأمين المسيحيين، ثمّ تناول مصحفاً من جيبه، وأخذ اليمين على العلماء والزعماء.

وفي نهاية المؤتمر انتخب الشيخ حسين مغنية رئيس العلماء ليرأس وفداً إلى دمشق، لمناقشة ما اتّفق عليه مع فيصل، لكنّه اعتذر لكبر سنه، فانتُدب السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين بالإضافة إلى السيد محسن الأمين الذي كان نزيل دمشق والذهاب معاً للقاء فيصل. وقد صُدِّق بالإجماع على الوثيقة المقرّرة في المؤتمر، والتي تضمّنت الموافقة على القرارات الصادرة عن المؤتمر السوري؛ أي استقلال سوريا الشامل بإمرة فيصل، بلا تقسيم ولا حماية فرنسية.

والتحاق جبل عامل بسوريا في إطار الاستقلال الإدراي.

وقبل انطلاق الوفد إلى دمشق، طلب العلماء والزعماء من صادق حمزة ورجاله أن يعدهم للفرنسيين، فانصاع صادق لطلبهم واستثنى من كان (إلباً) للفرنسيين؛ أي عوناً على الوطن واستقلاله مجاهراً بذلك مع الغاصبين المحتلين، مسلماً كان أو مسيحياً؛ لأنّ جهاده كان حسب قوله: «**سياسياً لا دينياً**».

ماذا بعد المؤتمر؟

نتيجة للمبالغات التي أعقبت عقد مؤتمر وادي الحجير، وبسبب نقل وقائع المؤتمر مشوّهة أو محرّفة والتي كان من شأنها إثارة عواطف المسيحيين واستعداؤهم، وتشجيع المستغلّين لمثل هذه الأحداث، فإنّ التوتر ازداد في جبل عامل بين الشيعة والمسيحيين، وساءت الأحوال. وزاد في الأمر سوءاً، ما فعله الفرنسيون الذين ذرّوا على الجرح ملحاً فسلّحوا أهل عين إبل من جهة، وأظهروا عجزهم إزاء العصيان المدني الشامل الذي لجأ إليه العامليون، وقد سوّل المستعمر لأهل عين إبل؛ فاغترّوا بحصانة موقعهم وبقوّة أسلحتهم، وابتدروا من مكانتهم منصلتين بالعداوة والمجاهرة بالاعتداء، فكانت هذه

حركة استفزازية، قابلها الفتيان العامليون بالاستياء والحفيظة. إذ لا بدّ من القول إنّ القرى التي هوجمت كان يسكنها مسيحيون لم يخفوا انتصارهم لفرنسا، وكان سكّان عين إبل، أكثر القرى المصابة، قد استقبلوا الجنرال غورو بفرحة عارمة، وهم يردّدون هتافات عن تعلّقهم ببلده، لذلك أوفدوا شخصاً لطلب الحماية الفرنسيّة من الضابط المقيم في صور، فاكتفى بتزويدهم بالسلاح، نظراً لعجزه عن إجابة طلبهم، كما أنّهم رفضوا طلب موفد صادق حمزة بإعطاء المتمرّدين سلاحاً ومالاً وبرفع راية فيصل. ومن البديهيّ أنّ سكّان هذه القرى كانوا بذلك يعرّضون أنفسهم لتهمة التعاون مع الفرنسيين أو العمالة لهم من قبل الشيعة. وفي الخامس من أيار سنة 1920م، هاجمت كتيبة محمود أحمد بزّي، يصاحبها وجهاء من آل بزّي، آخر قرية مسيحية في قضاء صور، وهي عين إبل القريبة من بنت جبيل. أمّا صادق حمزة فقد اتّخذ هدفه موقع صور الفرنسي. وقد تابعت كتائب انتشارها في جبل عامل، يشجّعهم في ذلك الوطنيون في دمشق، إذ أرسلوا إلى صادق حمزة رسائل التهنئة يصفونه فيها بأنّه قائد جبل عامل.

حملة نيجر التدميرية

في النصف الثاني من شهر أيار انطلقت مفرزتان بأمرة العقيد نيجر من النبطية وصور، والتقتا في تبنين، ثمّ تابعتا سيرهما نحو بنت جبيل، وهما تضمّان أربعة آلاف جندي. والحقيقة أنّ المعركة كانت شرسة فصدّها صادق ورجاله عن التقدّم حتّى نفدت ذخيرتهم، ولم يموّلهم أحد بمدد فتراجعوا. وكان من شجاعة الثوّار أنّ أحدهم اقتحم برج مصفّحة فقتل سائقها، ورجع سالماً!

وفي الوقت نفسه كانت فرقة أدهم تتصدّى للحملة على طريق المصيلح. وعند قدومها آتية من الزهراني أمطرها الثوّار بكثافة، لكنّ الحملة كانت مسلّحة تسليحاً كاملاً بالدبابات والمدافع وعربات الجنود فقتل من الحملة عدد لا يستهان به، ثمّ انسحب الثوّار باتّجاه النبطية حتّى منطقة مرجعيون، وهناك التقت مجموعتا صادق

وأدهم، ثمّ انتقلتا إلى سهل الحولة، فانضمّت إليهما مجموعات الثوّار هناك، وبدؤوا بمهاجمة الفرنسيين في مرجعيون وضواحيها.

تدابير نيجر القمعية ضدّ العامليين

كانت تدابير القمع بحقّ الثوّار وقُراهم قد أثّرت تأثيراً عميقاً في العامليين، ما يسمح بالقول إنّ الفلاحين أصيبوا بالرعب. وما زالت ذكرى قصف القرى الشيعية بالطائرات تُتناقل إلى اليوم في الأحاديث الشفهية. وكان الوجهاء الشيعة كلّهم في نظر الفرنسيين متورّطين فمن لم يفرّ منهم بسبب حكم عليه، وقد استدعى العقيد نيجر في 5 حزيران سنة 1920م عشرة منهم إلى مطرانية الروم الكاثوليك في صيدا. وقد وبّخهم بحضور الوجهاء السنّة والمسيحيين، ثمّ ألزم الشيعة بتوقيع شروط مفروضة عليهم، وإلّا نفاهم، ومنها أن يدفع الشيعة غرامة مالية قدرها مئة ألف ليرة ذهبية، وأن تدفع الضرائب، وأن يُسلّم المحكومون، وأن يُنشر الأمن في القرى المسيحية، وأن يُسمح لهم بالعودة إلى قراهم. لقد فهم الشيخ أحمد رضا، أنّ هذه السياسة تهدف إلى إفقار الطائفة الشيعية، وقد عانت بالفعل الكثير من الصعوبات في إنعاش اقتصادها بعد هذه الاضطرابات، كما أنّه أشار إلى أنّ شيعة جبل عامل لم ينالوا من الوطنيين أيّة مساعدة، بل كانوا موضع سخريتهم اللاذعة. ولقد كشفت القسوة في قمع العامليين من جهة، وعزلتهم من جهة أخرى «**سقوط الجبل**» بتعبير السيد عبد الحسين شرف الدين، أي جبل عامل، وقد اعتبر ذلك أساسياً في سقوط القضيّة السورية.

المفاهيم الرئيسة:

1 - اختير وادي الحجير مكاناً لاجتماع العامليين بكلّ شرائحهم: الزعماء والعلماء والوجهاء.

2 - ألقى العلامة الكبير السيد عبد الحسين شرف الدين خطاب الافتتاح مذكّراً بالموقف الحرج، وكان لخطابه أثره العظيم والكبير في توجيه النفوس ضدّ سياسة فرنسا المتّبعة.

3 - كان كلام السيد شرف الدين عنيفاً يهدف إلى تعبئة العواطف ضدّ الفرنسيين. وقد عبّر بذلك عن وجهة نظر المؤتمرين باستقلال جبل عامل ضمن المملكة السورية التي دعوا إليها باسم الوحدة السورية.

4 - انتخب الشيخ حسين مغنية رئيس العلماء ليرأس وفداً إلى دمشق لمناقشة ما اتّفق عليه مع فيصل، لكنّه اعتذر لكبر سنه.

5 - صُدِّق بالإجماع على الوثيقة المتّخذة في المؤتمر، والتي تضمّنت الموافقة على القرارات الصادرة عن المؤتمر السوري، أي استقلال سوريا الشامل بإمرة فيصل، بلا تقسيم ولا حماية فرنسية.

6 - نتيجة للمبالغات التي أعقبت عقد مؤتمر وادي الحجير، وإلى نقل وقائع المؤتمر مشوّهة أو محرّفة والتي كان من شأنها إثارة عواطف المسيحيين واستعداؤهم، فإنّ التوتّر ازداد في جبل عامل بين الشيعة والمسيحيين.

7 - كانت تدابير القمع بحقّ الثوار وقراهم قد أثّرت تأثيراً عميقاً في العامليين ما يسمح بالقول إنّ الفلاحين أصيبوا بالرعب.

11



الدرس الحادي عشر





جهاد شيعة لبنان من لبنان الكبير حتى الاستقلال اللبناني

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف دور الشيعة في الثورة السورية.

2 - يعرف موقف العامليين من الاستيطان الصهيونيّ في فلسطين.

3 - يدرك دور العامليين الجهادي في انتفاضتي بنت جبيل والقسّام في فلسطين.

مواقف العامليين الوطنية

جبل عامل بين لبنان الكبير ومعاهدة 1936 [(1)] م:

صحيح أنّ الانتداب الفرنسيّ استطاع، ولأسباب عديدة داخلية وخارجية، ولعدم التكافؤ في القوى بين العامليين والفرنسيين، أن يوجّه ضربة قوية وقاسية للعمل الوطنيّ في جبل عامل ممثّلاً «**بالعصائب**» الوطنية التي وقفت بوسائلها المعروفة وبإمكانياتها المتواضعة والمتوافرة ضدّ الفرنسيين والمتعاونين معهم في المنطقة، إلا

---

(1) **معاهدة** 1936م: المعاهدة البريطانية المصرية لعام 1936م هي معاهدة وقعت في 26 أغسطس 1936م بين بريطانيا ومصر في قصر الزعفرانة. وقد جاءت المعاهدة بعد إصدار بيان الحكومة بوفاة الملك فؤاد وارتقاء ابنه الملك فاروق العرش، وتمّ تعيين مجلس وصاية نظراً لصغر سنّه، ثمّ شكّل حزب الوفد الوزارة نظراً لفوزه في الانتخابات البرلمانية، وطالب بإجراء مفاوضات مع بريطانيا بشأن التحفّظات الأربعة، ولكن الحكومة البريطانية تهرّبت؛ فقامت الثورات وتألّفت جبهة وطنية لإعادة دستور 1923م بدلاً من دستور 1930م ولذلك اضطرت بريطانيا للتراجع، واضطرت للدخول في مفاوضات بقيادة السير مايلز لامبسون المندوب السامي البريطاني ومعاونيه وهيئة المفاوضات المصرية المصرية، ولقد اشترطت إنجلترا أن تكون المفاوضات مع كلّ الأحزاب حتّى تضمن موافقة جميع الأحزاب وبالفعل شاركت كلّ الأحزاب عدا الحزب الوطني الذي رفع شعار (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء). وبدأت المفاوضات في القاهرة في قصر الزعفران في 2 مارس، وانتهت بوضع معاهدة 26 أغسطس 1936م في لندن. وكانت بنود المعاهدة الآتي:

1. انتقال القوّات العسكرية من المدن المصرية إلى منطقة قناة السويس، وبقاء الجنود البريطانيين في السودان بلا قيد أو شرط.
2. تحديد عدد القوّات البريطانية في مصر، بحيث لا يزيد عن 10 آلاف جندي و400 طيّار مع الموظّفين اللازمين لأعمالهم الإدارية والفنّية؛ وذلك وقت السلم فقط، أمّا حالة الحرب فلإنجلترا الحقّ في الزيادة، وبهذا يصبح هذا التحديد غير معترف به.
3. لا تنتقل القوّات البريطانية للمناطق الجديدة إلا بعد أن تقوم مصر ببناء الثكنات وفقاً لأحدث النظم.
4. تبقى القوّات البريطانية في الإسكندرية 8 سنوات من تاريخ بدء المعاهدة.
5. تظلّ القوّات البريطانية الجويّة في معسكرها في منطقة القنال ومن حقّها التحليق في السماء المصرية، للطائرات المصرية الحقّ نفسه.
6. في حالة الحرب تلتزم الحكومة المصرية بتقديم كلّ التسهيلات والمساعدات للقوّات البريطانية، وللبريطانيين حقّ استخدام موانئ مصر ومطاراتها وطرق المواصلات بها.
7. بعد مرور 20 عام من التنفيذ للمعاهدة، يبحث الطرفان فيما إذا كان وجود القوّات البريطانية ضرورياً، لأنّ الجيش المصري أصبح قادرا على حرية الملاحة في قناة السويس وسلامتها فإذا قام خلاف بينهما فيجوز عرضه على عصبة الأمم.
8. حقّ مصر في المطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية.
9. إلغاء جميع الاتّفاقيات والوثائق المنافية لأحكام هذه المعاهدة، ومنها تصريح 28 فبراير بتحفّظاته الأربعة.
10. تحويل إرجاع الجيش المصري للسودان، والاعتراف بالإدارة المشتركة مع بريطانيا.
11. حريّة مصر في عقد المعاهدات السياسية مع الدول الأجنبية، بشرط إلا تتعارض مع أحكام هذه المعاهدة.
12. تبادل السفراء مع بريطانيا العظمى.

أنّ الفرنسيين لم يستطيعوا أن يقضوا نهائياً على الروح الوطنية المتجذّرة في صدور العامليين وفي أفكارهم ومنطلقاتهم كذلك. والدليل على ذلك أنّ أهالي جبل عامل وممثليهم، لم يفوّتوا فرصة سانحة دون إبراز مواقفهم الأساسية، الممثّلة بدعوتهم الدائمة والمستمرة إلى تأكيد العلاقة مع سوريا وفي رفض الانتداب الفرنسي. وقد عبّرت مجلّة العرفان عن هذه الطموحات من خلال ما ورد فيها عام 1921م: إنّ الوحدة السورية أنجح دواء لأدوائنا، وأفضل واسطة تجمع قلوبنا، ولا يستحسن ضمّ لبنان الكبير لهذه الوحدة فقط، بل حبّذا ضمّ فلسطين وما وراء الأردن، وما ذلك بعزيز لو صحّت العزائم».

إنّ ما جرى في جبل عامل سنة 1920م، كان تمهيداً لما سيجري بعد ذلك في سوريا، حيث كان الفرنسيون يخطِّطون بعد احتلال المنطقة إلى إكمال طريقهم لاحتلال الشام، وذلك لإكمال مخطّط سايكس - بيكو.

ويشاء القدر أن يكون اعتقال أحد قادة العصائب (أدهم خنجر) من قبل الفرنسيين، الشرارة الأولى التي ألهبت منطقة جبل العرب بأسرها، لتنطلق الثورة السورية الكبرى بعد ذلك.

القمع الفرنسيّ ضدّ العامليين

لقد تعرّض العامليون لأساليب القمع الفرنسي المختلفة، وعلى رأسها إعدام البطل العاملي أدهم، فقد صادف وجود أدهم ذات يوم في منزل سلطان باشا الأطرش[1]

(1) **سلطان الأطرش:** والمعروف باسم سلطان باشا الأطرش (1891م - 1982م) قائد وطني ومجاهد ثوري سوري درزي القائد العام للثورة السورية الكبرى 1925م، ضد الانتداب الفرنسي، أحد أشهر الشخصيات الدرزية في العصر الحديث، عرف بوطنيته وشجاعته ورفضه لتجزئة سورية.
ولد سلطان باشا الأطرش في قرية القريّا في محافظة السويداء منطقة صلد، في الجمهورية العربية السورية في العام 1891م وتوفي في 1982/3/26م، لدى عائلة الأطرش الدرزية الشهيرة. والده ذوقان بن مصطفى بن إسماعيل الثاني مؤسس المشيخة الطرشانية 1869م، كان مجاهداً وزعيما محلّياً، قاد معركة ضارية في نواحي الكفر عام 1910م، وهي إحدى معارك أبناء الجبل ضدّ سامي باشا الفاروقي، والتي كانت تشنّها السلطنة العثمانية على جبل الدروز لكسر شوكته وإخضاعه لسيطرتها، أعدمه الأتراك شنقاً بسبب تمرده عام 1911م. أمّا والدة سلطان فهي شيخة بنت إسماعيل الثاني.
هو كبير إخوته علي ومصطفى وزيد، وله أختان سمّية ونعايم تزوّج في سن التاسعة عشر من عمره من ابنة عمّه فايز غازية، لكنّها توفّيت بعد فترة قصيرة دون أن يرزق منها أطفالا. و بعد عودته من الخدمة الإجبارية تزوّج من ابنة الشيخ إبراهيم أبو فخر من بلدة نجران، واسمها تركية ورزق، منها جميع أولاده الذكور: طلال وفواز ويوسف وجهاد توفوا جميعاً، ومنصور وناصر وطلال والإناث: غازية، وبتلاء وزمرد وتركية ونايفة وعائدة ومنتهى.

فقبض الفرنسيون عليه بوشاية، وحُمل إلى السويداء، ثمّ إلى بيروت، وأُعدم هناك. وقد لعب المجاهدون العامليون دوراً بارزاً في دعم الثورة السورية، وكانت الثورات تتلاقى بين سوريا ولبنان، خاصة ثورة سنة 1925م، التي لعب فيها المجاهدون الشيعة في جنوبي لبنان دوراً بطولياً رائعاً. وفي غضون 1927م كانت الثورة السورية ما تزال مشتعلة، أو قبيل انتهائها بفترة وجيزة، وخوفاً من انتقال عدوى هذه الثورة مجدّداً إلى منطقة جبل عامل، فقد لجأت السلطات الفرنسية إلى جمع السلاح من المنطقة، وكلّفت الجندرمة المحلّية بالتفتيش عنها، وهدّدت باستعمال أقصى العقوبات بحقّ كلّ من يدلي بتصريحات ناقصة أو كاذبة، بقصد الحؤول دون جمع السلاح من صور ومنطقتها.

موقف العامليين من دستور سنة 1926م والاستيطان

بعدما وضع الدستور اللبناني سنة 1926م، قابله فريق بالارتياح وآخر بالارتياب، فقد اعتبره الفريق الأوّل بدايةَ الخلاص من الاستعمار الفرنسي، وأنّه ضرب من ضروب التحرّر والانعتاق. لكنّ الفريق الثاني كان يعي أنّ الدستور لا يلبّي الحاجات والمطالب القومية المطلوبة. في الوقت الذي كان أبناء جبل عامل عامّة لا يعرفون المصير الذي سيؤولون إليه، فهم ما زالوا يفكّرون بالانضمام إلى سوريا، وبقوا ينادون بشعار الوحدة السورية ويعملون من أجل تحقيقه.

إضافة إلى المواقف العاملية التي برزت حتى عام 1927م فإنّ المواقف نفسها تتكرّر أثناء مؤتمر القدس، بهدف لفت الرأي العام الإسلاميّ إلى خطر الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وقد شارك فيه قيادات سياسية إسلامية وكبار رجال دين مسلمون من 22 دولة، وقد تمثّل جبل عامل بوفد مؤلّف من رياض الصلح، أحمد رضا، الشاعر محمد علي الحوماني والشيخ سليمان ظاهر. وجاءت مشاركة العامليين نتيجة قناعة راسخة بأنّ الخطر الصهيوني لا يطال فلسطين فقط، بل

يمتدّ إلى جبل عامل. وكان لمشاركة العامليين وقع مهمّ على المهتمّين بإنجاح المؤتمر. هذا، ولم تتوقّف الاجتماعات والمؤتمرات العاملية أو التي شارك فيها عامليون لإثبات أنّه كان جزءاً من سوريا، وأنّ العامليين لم يكونوا أبداً من طلّاب الانتداب الفرنسي.

انتفاضة بنت جبيل

في عام 1936م انفجر الوضع في بنت جبيل على أثر تلزيم زراعة التبغ في جبل عامل لشركة فرنسية «**الريجي**». يومها احتجّ عدد من شبّان البلدة فاعتقلتهم السلطات الفرنسية، فانضمّت القرى المجاورة وعلى رأسها عيناثا إلى مظاهرات صاخبة للمطالبة بإخراج المعتقلين من سجن بنت جبيل، فوقع عدد من المحتجّين صرعى وجرحى؛ وأعلن جبل عامل الإضراب العام وعمّت المظاهرات الجبل بكامله من أقصاه إلى أقصاه، ولم تنفع أساليب القمع. فكان من نتائج هذه الانتفاضة أنّ السلطة شعرت أنّ جبل عامل بكلّ أهله يقف وقفة واحدة ضدّها وضدّ احتكار شركة الريجي، ودعماً للوحدة السورية والمطالب الوطنية.

الشيعة والقضية الفلسطينية

منتصف العام 1936م كان التوتّر على أشدّه في البلاد الخاضعة للانتداب، في أواسط العقد الرابع من القرن العشرين. فقامت الثورات في المناطق الريفية، في أماكن مختلفة من فلسطين، ولا سيما في الجليل الأدنى، حيث قام الشيخ عزّ الدين

القسّام[1] بحرب على البريطانيين إلى أن استشهد في ساحة القتال في تشرين الثاني 1935م. واستمرّ العنف إلى بداية الحرب العالمية الثانية. وقد عُزّز بإضراب في المدن دام ستة أشهر. وكان العامليون في الجهة المقابلة من الحدود التي رسمتها سلطات الانتداب، يتابعون هذه الأحداث عن قرب. وكانت العلاقات التي تربط العامليين الجنوبيين بفلسطين أقوى بكثير من تلك العلاقة التي كانت تربطها بالمدن اللبنانية، خاصّة صيدا وبيروت وغيرهما، إلى درجة أن العملة الفلسطينية كانت الأكثر تداولاً في معظم أسواق الجنوب وبلداته. أمّا على الصعيد السياسيّ، فالعلاقة بين الحركة الوطنية في كلّ من القطرين كانت قوية لدرجة أنّها كانت علاقة بين جناحين لحركة وطنية واحدة وهكذا كانت العلاقة أيضاً مع الحركة الوطنية السوريّة التي كانت تقارع الاستعمار الفرنسي.

تخوّف العامليون من حلول الاستعمار الاستيطاني الصهيوني على الحدود الفلسطينية؛ ومن هنا وجدوا أنفسهم معنيين فعلاً بالثورة التي أعلنتها الجماهير الفلسطينية سنة 1936م، حيث كان الثوار الفلسطينيون يتلقّون المعونة المادّية والدعم المعنويّ من وطنيي جبل عامل. ونمت العلاقة الوثيقة بين بنت جبيل ومنطقة صور من جهة والثوار الفلسطينيين من جهة ثانية، حتّى أنّ شهداء عامليين استشهدوا، وهم يقاتلون إلى جانب إخوانهم في فلسطين.

---

(1) **القسّام**: هو عزّ الدين عبد القادر مصطفى يوسف محمد القسّام (19 نوفمبر 1871م – 20 نوفمبر 1935م)، وُلد في مدينة جبلة في محافظة اللاذقية في سوريا. ينسب إليه الجناح العسكري لحركة حماس. والده عبد القادَر بن محمود القسّام. كان القسّام منذ صغره يميل إلى العزلة والتفكير. تلقّى دراسته الابتدائية في كتاتيب بلدته جبلة، ورحل في شبابه إلى مصر حيث درس في الأزهر، وكان من عداد تلاميذ الشيخ محمد عبده والعالم محمد أحمد الطوخي. كما تأثّر بقادة الحركة النشطة التي كانت تقاوم المحتل البريطاني بمصر.
ولمّا عاد إلى بلاده سوريا عام 1903 م تولّى الخطابة في جامع السلطان إبراهيم، وأقام مدرسة لتعليم القرآن واللغة العربية في مدينة جبلة. في عام 1920م عندما اشتعلت الثورة ضدّ الفرنسيين شارك القسّام في الثورة فحاولت السلطة العسكرية الفرنسية شراءه وإكرامه بتوليته القضاء، فرفض ذلك، وكان جزاؤه أن حكم عليه الديوان السوري العرفي بالإعدام. قاد أوّل مظاهرة تأييداً لليبيين في مقاومتهم للاحتلال الإيطالي، وكوّن سرية من 250 متطوعاً، وقام بحملة لجمع التبرعات.

دفاع علماء الشيعة عن فلسطين

غادر عدد كبير من أبناء فلسطين بلادهم بعد المذابح الرهيبة التي كان الصهاينة يرتكبونها، فوقف أبناء جبل عامل من إخوانهم موقفاً مشرّفاً وقدّموا لهم البيوت والفرش والطعام. وباعتراف فوزي القاوقجي نفسه في مذكّراته فإنّ المعارك الحامية تلك التي دارت على أرض جبل عامل دفاعاً عن القضية الفلسطينية، كانت من أشدّ ما عرفته فلسطين من معارك. ولعلّ الحماسة الدينية والقومية المتجذّرة في قلوب العامليين مردّها إلى مواقف المراجع والعلماء. فها هو السيد محسن الأمين يعلن الجهاد المقدّس في فلسطين، ويوجّه نداءً يقول فيه: «**أيّها العرب، أيّها المسلمون، إنّ لكم في فلسطين تراثاً، وإنّ لكم في كلّ غور ونجد وحزن وسهل فيها دماً عُجن به ترابها، واختلط به ماؤها ونباتها، وإنّ إخوانكم في فلسطين قد أقضّ مضاجعهم ما هم فيه من محنة وبلاء، وأسهر عيونهم وبرّح أجسامهم ما يلاقونه من كيد الخصوم، وإنّ بني أبيكم ليقدمون إقدام الأتيّ ويدافعون دفاع المستميت، فلا تظنّوا عليهم ببذل التافه الحقير وهم بذلوا الجليل العظيم...**».

ومِثْلُه السيد عبد الحسين شرف الدين يستصرخ الأمّة بنداء آخر: «**أيّها المسلمون، أيّها العرب، هذا شهر المحرّم الدامي الذي انتصرت فيه عقيدة، وبُعث فيه مبدأ. ألا إنّ قتلة الحسين عليه السلام بكر في القتلات، فلتكن قدوتنا فيه بكراً في القدوات، ولنكن نحن في فلسطين مكان سيّد الشهداء من قضيّته، ليكون لنا ولفلسطين ما كان له ولقضيته من حياة ومجد وخلود.**

أيّها العرب، أيّها المسلمون، لقد حُمَّ الأجل وموعدنا فلسطين، عليها نحيا وفيها نموت والسلام عليكم يوم تموتون شهداء، ويوم تبعثون أحياء».

جبل عامل والقضية الفلسطينية

بعد ضياع فلسطين قضمت الدولة الصهيونية آلاف الدونمات من أراضي قرى جبل عامل، وضمّتها إليها، كما اقتطعت بريطانيا من قبل قرى طربيخا وصلحا وقدس والنبيّ يوشع وهونين والمالكية[1] وآبل والمنصورة وغيرها من المزارع والقرى الصغيرة. وبعد الهزيمة التي مُني بها العرب عام 1967م، أصبحت قرى جبل عامل على موعد دائم مع الاعتداءات الإسرائيلية والقذائف والصواريخ.

وما كانت الثورة الفلسطينية لتثبت أقدامها في لبنان لولا الدفق الجماهيري المؤيّد لها، حيث كانت تمتلك أرضية صلبة في الجنوب اللبناني. ولقد كان للشعارات والنداءات التي أطلقها السيد موسى الصدر دويّ قويّ في أوساط المسلمين اللبنانيين عامّة وأهالي جبل عامل خاصّة «**إنّ التعامل مع إسرائيل حرام**» وشعار «**إسرائيل شرّ**

(1) **القرى السبع**: بعد نكبة فلسطين في العام 1948م، استمرّت الأعمال التوسّعيّة الصهيونية، فاحتلّت 17 قرية، وقد وصل لواء كرملي الإسرائيلي إلى وادي دوبا في الغرب وإلى نهر الليطاني في الشمال. وارتكب الصهاينة في بلدة حولا مجزرة ذهب ضحيّتها حوالي 81 شخصاً حسب مصادر الأهالي، لكنّ الضغوط السياسية الفرنسية فرضت على بريطانيا وبالتالي إسرائيل التراجع إلى ما سمّي بخط الهدنة. لكنّ أجزاءً واسعة من القرى السبع بقيت ضمن حدود فلسطين المحتلة، تتسع وتضيق حسب ما استقرّ عليه وضع هذه الحدود، فمن أصل 12840م دونما في هونين، تحرّر 2900 دونم، وهذه الأراضي تتداخل مع قرى: مركبا، رب ثلاثين، عديسة، وحولا، وبقيت من أراضي قدس البالغة 1200 دونم، 200 دونم متداخلة مع أراضي: عيترون في منطقة أبو شوارب. وبالنسبة لتربيخا التي تبلغ مساحتها 35000 دونم، هناك 5000 دونم داخل الجزء المحرّر وهو يتداخل مع: راميا، عيتا الشعب، يارين، ومروحين. وكذلك الأمر بالنسبة إلى صلحا التي تبلغ مساحتها 10 آلاف دونم، هناك 444 دونما في المنطقة المحرّرة المتداخلة مع: مارون الراس، يارون وعيترون، أمّا قرية النبيّ يوشع فمساحتها 2000 دونم، لكن ليس لها أرض مشتركة مع الجوار، غير أنّ آبل القمح البالغة 17 ألف دونم، فلها 10 آلاف دونم داخل الأراضي المحرّرة، وبالنسبة للمالكية التي تقدّر مساحتها بـ 12 ألف دونم، هناك 25 دونم في الجزء المحرّر وتتداخل مع أراضي عيترون.

مزايا القرى السبع: تميّزت القرى الجنوبية السبع، والتي اختصرت هذه التسمية القرى والبلدات والمزارع المحتلة في أصبع الجليل، بموقعها الاستراتيجي، فشكّلت مركزاً أمنياً متقدّماً يحمي المستوطنات الشمالية، فهذه المنطقة تضمّ مرتفعات بالغة الأهمّية تشرف على كلّ الأراضي الجنوبية، وقد سبق لبريطانيا أن اعتمدتها في استراتيجيتها العسكرية فأنشأت على طول الحدود ثكنات عسكرية عبارة عن أبراج عالية، لمراقبة تحرّكات الثوار، ورصد أيّ عمل عسكري عربي أو غيره. وشجّعت على بناء المستوطنات الصهيونية لتكريس الاحتلال، وتحويل هذه المستوطنات إلى معسكرات لمنع تسلل المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب إلى فلسطين.

واحتفظ أهالي القرى الجنوبية السبع بهوية دولة لبنان الكبير، التي حصلوا عليها في العام 1920م، وحتى دخول اتفاقية نيو كومب - بوليه حيز التنفيذ في 30 آب/أغسطس 1924م عندما ضُمّت القرى إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة، إلا أنّه من الواضح أنّ هذه القرى لم تُسلخ عن لبنان رسمياً إلا بموجب اتفاق القدس بتاريخ 2 شباط/ فبراير 1926م الموقع بين بريطانيا وفرنسا، والمسمّى بـ «اتّفاق الجوار» والذي تنازلت فيه الثانية للأولى عن الأراضي اللبنانية في الحولة وجوارها، وذلك مقابل منح شركة فرنسية امتياز تجفيف المستنقعات.

مطلق» وشعار «**بعمامتي هذه سوف أحمي الثورة الفلسطينية**» وشعار «**إنّ شرف القدس يأبى أن يتحرّر إلا على أيدي الشرفاء**»، وغيرها من الشعارات التي جعلت كلّ القوى والتيّارات الوطنية والإسلامية تتعاطف مع الثورة الفلسطينية. وكان للإضرابات والمظاهرات المسلّحة التي تقسم بالله على مواصلة الجهاد أثرها على الساحة السياسية وامتداد العمق الجماهيري للثورة. كما لاقت دعوة «**المحرومين في وطنهم والمحرومين من وطنهم**»، التفاف الجماهير المسلمة حيث ربط السيد بين الظلم الذي يحيط باللبنانيين في وطنهم والوضع البائس الذي يعيشه الفلسطينيون خارج وطنهم، فكانت (حركة المحرومين) التي مدّت نظرها للمحرومين والمستضعفين دون الالتفات لهويّتهم ومذهبهم.

وها هو السيد موسى الصدر يتطلّع إلى واقع البلاد والأمّة وحاضرها ومستقبلها في مهرجان بعلبك في 19 آذار 1974م، ويطالب الدولة بإنشاء مخيّمات التدريب فقال: «**... أنا سأطلب منكم إنشاء مخيّمات التدريب، مخيّمات في البقاع والجنوب، وأنا سأتدرّب معكم. لا تعتقدوا أنّ المعركة مع إسرائيل قاربت نهايتها، وأنّ العالم العربي سينام مرتاحاً. نربّي جيلاً يتمكّن من حمل السلاح... نحن مضطرون إلى تدريب أولادنا وتسليحهم لكي نحفظ كرامة بيوتنا ونحفظ أعراضنا ونؤدّي دورنا في صيانة الوطن**».

الاجتياح الإسرائيلي سنة 1978م

سبق الاجتياح الإسرائيلي لجبل عامل عام 1978م عملية فدائية جريئة قامت بها مجموعة من الفدائيين في عمق الأراضي الإسرائيلية على شواطئ حيفا، فما كان من حكّام إسرائيل إلا أن اتّخذوا من هذه العملية ذريعة لاجتياح جبل عامل.

وفي الخامس عشر من آذار سنة 1978م بدأ اليهود هجومهم الواسع النطاق على طول الحدود مع لبنان من الناقورة غرباً حتى راشيا شرقاً، على جبهة يبلغ طولها مئة

كيلو متر تقريباً. وقد بدأ الهجوم البريّ بعد التغطية بالقصف الجويّ والمدفعي البعيد المدى المكثف، ثمّ دفعوا بقوّاتهم المحمولة تدعمها الآليات الضخمة، وقد قدّر مجمل المشتركين في هذه الهجمة بـِ 28 ألف جندي تقريباً، و50 دبابة وأربعة ألوية مدرّعة، تساندها المدفعية الصاروخية.

وقد تعاونت الميليشيات المسيحية والصهاينة على تدمير القرى وتشريد السكّان، واقتحم رجال سعد حدّاد بالتعاون مع الصهاينة بلدة الخيام فقتلوا أكثر من ثمانين مدنياً عاجزاً، ودمّروها تدميراً شاملاً. أما قرية العبّاسية فقد هاجمها الطيران الصهيونيّ وقصف المسجد الجامع، وذلك عندما التجأ الأهالي للاحتماء به. لقد قصف قصفاً عنيفاً فدُمّر على رؤوس من كانوا فيه، ولم ينجُ منهم أحد! وقتل أكثر من سبعين شخصاً أكثرهم من النّساء والأطفال! ومارسوا المجازر نفسها في بلدات كونين والغندورية وفرون، حيث تشرّد السكان وهربوا نحو صيدا وبيروت، وأقيمت لهم المخيّمات في صيدا، وافترشوا ملاعب المدارس ومداخل البنايات في بيروت، واستقرّت القوات الإسرائيلية على مقربة من نهر الليطاني، بالقرب من برج رحال.

وقد سُمّيت عملية الاجتياح هذه: «**عملية الليطاني**»؛ لأنّ الليطاني هو الحلم الذي يراود اليهود منذ ما قبل مطلع القرن العشرين، ووصل الجيش الإسرائيلي إلى بلدة عين بعال على مقربة من مدينة صور وبالقرب من مخيم الرشيدية جنوب صور وعلى مقربة من جسر القعقعية الواقع على نهر الليطاني.

المفاهيم الرئيسة:

1 - استطاع الانتداب الفرنسي ولأسباب عديدة داخلية وخارجية، ولعدم التكافؤ في القوى بين العامليين والفرنسيين، أن يوجّه ضربة قوية وقاسية للعمل الوطنيّ في جبل عامل.

2 - لم يستطع الفرنسيون أن يقضوا نهائياً على الروح الوطنية المتجذّرة في صدور العامليين وفي أفكارهم ومنطلقاتهم كذلك.

3 - إنّ ما جرى في جبل عامل سنة 1920م، كان تمهيداً لما سيجري بعد ذلك في سوريا، حيث كان الفرنسيون يخطِّطون بعد احتلال المنطقة إلى إكمال طريقهم لاحتلال الشام.

4 - يشاء القدر أن يكون اعتقال أحد قادة العصابات (أدهم خنجر) من قبل الفرنسيين، الشرارة الأولى التي ألهبت منطقة جبل العرب بأسرها.

5 - بعدما وضع الدستور اللبناني سنة 1926م، قابله فريق بالارتياح وآخر بالارتياب.

6 - في عام 1936م انفجر الوضع في بنت جبيل على أثر تلزيم زراعة التبغ في جبل عامل لشركة فرنسية «الريجي».

7 - كان التوتّر على أشدّه في البلاد الخاضعة للانتداب، في أواسط العقد الرابع من القرن العشرين. فقامت الثورات في المناطق الريفية، في أماكن مختلفة من فلسطين.

8 - تخوّف العامليون من حلول الاستعمار الاستيطاني الصهيوني على الحدود الفلسطينية، ومن هنا وجدوا أنفسهم معنيين فعلاً بالثورة التي أعلنتها الجماهير الفلسطينية.

9 – كان عدد كبير من أبناء فلسطين قد بدؤوا يغادرونها بعد المذابح الرهيبة التي كان الصهاينة يرتكبونها.

10 – بعد ضياع فلسطين قضمت الدولة الصهيونية آلاف الدونمات من أراضي قرى جبل عامل وضمّتها إليها، كما اقتطعت بريطانيا من قبل قرى طربيخا وصلحا وقدس والنبيّ يوشع وهونين والمالكية وآبل والمنصورة.

11 – لقد كان للشعارات والنداءات التي أطلقها السيد موسى الصدر دويّ قويّ في أوساط المسلمين اللبنانيين عامّة وأهالي جبل عامل خاصّة «إنّ التعامل مع إسرائيل حرام».

12



الدرس الثاني عشر





دور الإمام السيّد موسى الصدر في حفظ شيعة لبنان وقوّتهم

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف الظروف المحيطة لانطلاقة عمل الإمام موسى الصدر في لبنان.

2 - يفهم دور الإمام الصدر في تنظيم شؤون الطائفة الشيعية.

3 - يدرك الدور الجهاديّ والسياسي للإمام موسى الصدر.

الإمام الصدر في سطور

نسبه: الإمام السيد موسى الصدر، هو ابن السيد صدر الدين بن إسماعيل بن صدر الدين بن السيد صالح شرف الدين من جبل عامل. تعرّض السيد صالح لاضطهاد الدولة العثمانية زمن الجزّار 1143هـ، وكان يملك مزرعة اسمها (شدغيت) بالقرب من قرية معركة (قضاء صور). استطاع السيد صالح الفرار من سجن عكّا، حيث وصل إلى النجف الأشرف، وأقام بها.

تمكّن أبناؤه من بلوغ درجة عالية من العلوم الدينية، وأحدهم جدّ السيّد موسى الصدر السيّد صدر الدين الذي انعقدت له المرجعية في العراق. قاد السيد صدر الدين والد السيد موسى حركة دينية تقدّمية في شبابه في العراق، ثمّ هاجر إلى إيران ليستقرّ أخيراً في قم المقدسة.

نشأته وعلومه: ولد السيد موسى الصدر في 15 نيسان 1928م في قمّ. وتلقّى علومه في مدارسها الابتدائية والثانوية، كما تلقّى دراسات دينية في الحوزة العلمية في قم المقدّسة، وتابع دراسته الجامعية في كلّية الحقوق بجامعة طهران، وحاز أيضاً على إجازة في الاقتصاد. وكان يتقن اللغتين العربية والفارسية، وألمَّ باللغتين الفرنسية والإنكليزية، وصار أستاذاً محاضراً في الفقه والمنطق في جامعة قم الدينية. انتقل إلى النجف الأشرف سنة 1954م. جُمعت محاضراته وأبحاثه في كتابين (منبر ومحراب) و(الإسلام عقيدة راسخة ومنهاج حياة).

قدومه إلى لبنان: قدم السيد موسى الصدر إلى لبنان أول مرة سنة 1955م، وحلَّ ضيفاً على قريبه السيد عبد الحسين شرف الدين. وبعد وفاة الأخير استدعت مدينة

صور السيد موسى الصدر فلبَّى الدعوة في أواخر سنة 1959م، وأقام في مدينة صور.

وكان ذلك بناءً على وصية العلّامة السيد عبد الحسين شرف الدين قدس سره، إضافة إلى تشجيع زعيم الحوزة العلمية في قم للسيّد موسى الصدر على السفر، حيث كان الإمام الصدر في إيران حينها.

نشاطاته السياسية والاجتماعية

بدأ السيّد موسى الصدر نشاطاته بالرعاية الدينية والخدمات العامّة في مدينة صور، موسّعاً نطاق عمله بالمحاضرات والندوات والاجتماعات والزيارات، ثمّ راح يتحرّك في مختلف قرى جبل عامل، ثمّ في قرى منطقة بعلبك والهرمل، ثم تجوّل في باقي مناطق لبنان متعرّفاً إلى أحوالها ومحاضراً فيها ومنشئاً علاقات مع مختلف الطوائف وداعياً إلى نبذ التفرقة الطائفية، وداعياً إلى نبذ المشاعر العنصرية وإلى مكافحة الآفات الاجتماعية والفساد والإلحاد. أنشأ العديد من المؤسسات الاجتماعية وكان أهمها (مدرسة جبل عامل المهنية) في البرج الشمالي في صور، وأنشأ معهداً للدراسات الإسلامية.

سافر السيد إلى العديد من البلدان العربية والأفريقية والأوروبية، مساهماً في المؤتمرات الإسلامية، ومحاضراً ومتفقداً أحوال الجاليات اللبنانية والإسلامية.

تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى:

عقد العزم على تنظيم شؤون الطائفة الشيعية في لبنان أسوة ببقية الطوائف، فتوصّل إلى الحصول على مرسوم جمهوري يسمح بإنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأوّل في 1967/2/19م. وانتخب السيد موسى الصدر الرئيس الأوّل للمجلس شيعي في 1969/5/23م. وقد سعى السيد موسى الصدر بعد تولّيه رئاسة المجلس الشيعي لتنظيم شؤون الطائفة الشيعية والقيام بدور إسلامي كامل، وعمل على الوحدة بين المسلمين والتعاون والتعايش مع الطوائف الأخرى، وحفظ وحدة لبنان واستقلاله

وسلامة أراضيه، وعمل جاهداً لمحاربة الفقر والجهل والتخلّف والفساد الخلقي والظلم الاجتماعي، ودعا إلى دعم المقاومة الفلسطينية والمشاركة مع الدول العربية لتحرير الأراضي المغتصبة.

الدور الجهادي للإمام موسى الصدر

قاد الإمام حملة المطالبة بتحصين قرى الحدود وتسليح أبناء الجنوب وتدريبهم للدفاع، ووضع قانون خدمة العلم وتنفيذ المشاريع الإنمائية في جبل عامل، وقاد حملة توعية لعدم النزوح من القرى الحدودية ومجابهة الاعتداءات الإسرائيلية.

قاد التحرّكات الشعبية لإنقاذ الجنوب على أثر الاعتداءات الإسرائيلية منذ أوائل العام 1970م حيث توصّل إلى الاتّفاق مع الرؤساء الروحيين للطوائف في لبنان إلى تأسيس هيئة نصرة الجنوب، واستطاع أن يتوصّل إلى إنشاء مجلس الجنوب بمرسوم جمهوري في 1970/6/2.

ومع تصاعد الاعتداءات الإسرائيلية وتجاهل أهل الحكم بعد العام 1970م المطالب المحقّة للجنوبيين، أسّس السيد موسى الصدر عام 1974م حركة المحرومين، وَصَعَّدَ حملته من خلال المهرجانات الشعبية المتنقّلة في المناطق اللبنانية، ونجح في إرغام الحكومة على تنفيذ العديد من المطالب. لكنّ تغيّر الأوضاع السياسية في لبنان واندلاع شرارة الحرب الأهلية بعد استشهاد النائب معروف سعد وحادثة أوتوبيس عين الرمانة، اضطرّ السيد الصدر إلى إنشاء أفواج المقاومة اللبنانية أمل في 1975/1/20م.

موقفه من الحرب الداخلية في لبنان: بذل السيد الصدر المساعي الحميدة والجهود الحثيثة لوأد الفتنة وتهدئة الوضع، ووجّه العديد من النداءات والدعوات بوجوب المحافظة على العيش المشترك واعتماد الحوار واتّباع السُّبل والوسائل الديمقراطية لتحقيق الإصلاحات السياسية والاجتماعية، ورفض القهر الطائفي منادياً بالمحافظة

على التعايش اللبناني الفلسطيني وصيانة الثورة الفلسطينية، وعمل على فكّ الحصار عن قرية القاع المسيحية في منطقة الهرمل.

التعايش الإسلامي المسيحي

أكّد السيد الصدر على وجوب استمرار التعايش الطائفيّ، والدعوة إلى الحوار ووقف القتال، وتبنّي مطالب تحقيق العدالة الاجتماعية، وإنصاف المحرومين، والتمسّك بالسيادة الوطنية، ورفض التقسيم ودعم القضية الفلسطنية وأعلن ورقة الحوار الوطني.

وبعد مجزرة السبت الأسود في 1975/12/6م أكّد أنّ ملامح تقسيم لبنان قد برزت، وحذّر من إقامة إسرائيل جديدة ومن تصفية القضية الفلسطينية والاعتداءات الإسرائيلية على الجنوب، ودعا للتدريب وحمل السلاح دفاعاً عن النفوس ومنعاً للتقسيم.

نادى السيد الصدر بوجوب فصل الأزمة اللبنانية عن أزمة الشرق الأوسط، وبوضع اتّفاق جديد ينظّم العلاقات اللبنانية - الفلسطينية، ودعا الحكم اللبناني لاتّخاذ المواقف الحازمة ممّن يعرقلون مسيرة السلام والوفاق.

سعيه لإنقاذ جنوب لبنان

لم تدخل قوات الردع العربية جنوب لبنان، ولم تتمكّن السلطة اللبنانية من بسط سيادتها على المنطقة، واشتدّت محنة الجنوب، وباتت المنطقة مسرحاً لأحداث خطيرة تهدّد مصيرها، فيما راح السيد موسى الصدر يتابع مساعيه مع القيادات اللبنانية والعربية، ويرفع صوته بالخطابات والنداءات والأحاديث الصحفية محذّراً من كارثة في جنوب لبنان، ومن خطر تعريضه للاحتلال الإسرائيلي ولمؤامرات التوطين. وبعد تعرّض هذه المنطقة للاجتياح الإسرائيلي في 1978/3/14م قام السيد الصدر بجولة

على ملوك ورؤساء بعض الدول العربية مطالباً بإبعاد لبنان عن الصراع العربي. وبعد زيارته لسوريا والأردن والسعودية والجزائر انتقل إلى ليبيا، بناءً على إشارة من الرئيس الجزائري بتاريخ 1978/8/25م.

إخفاؤه في ليبيا

سافر السيد موسى الصدر في 1978/8/25م إلى ليبيا للاجتماع بالعقيد القذافي. وقد شوهد في ليبيا آخر مرّة في ظهر يوم 1978/8/31م، وبعدها انقطعت أخباره وأخبار رفيقيه، وأثيرت ضجّة عالمية حول اختفائه، وادّعى النظام الليبي أنّه سافر ورفيقيه إلى إيطاليا، فيما أنكرت هذه الدولة وصول السيد ورفيقيه إليها. وما زالت قضية إخفاء السيد الصدر ورفيقيه مبهمة حتى بعد زوال حكم القذافي، ولم يُعرف أيّ شيء عن مصيرهم إلى الآن.

المفاهيم الرئيسة:

1 - الإمام السيد موسى الصدر، هو ابن السيد صدر الدين بن إسماعيل بن صدر الدين بن السيد صالح شرف الدين من جبل عامل ولد السيد موسى الصدر في 15 نيسان 1928م في قم.

2 - قدِم السيد موسى الصدر إلى لبنان أوّل مرة سنة 1955م، وحلَّ ضيفاً على قريبه السيد عبد الحسين شرف الدين.

3 - بدأ السيد موسى الصدر نشاطاته بالرعاية الدينية والخدمات العامّة في مدينة صور.

4 - سافر السيد إلى العديد من البلدان العربية والأفريقية والأوروبية، مساهماً في المؤتمرات الإسلامية ومحاضراً ومتفقّداً أحوال الجاليات اللبنانية والإسلامية.

5 - عقد العزم على تنظيم شؤون الطائفة الشيعية في لبنان أسوة ببقية الطوائف، فتوصّل إلى الحصول على مرسوم جمهوري يسمح بإنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في 1967/2/19م.

6 - سعى السيد الصدر بعد تولّيه رئاسة المجلس الشيعي لتنظيم شؤون الطائفة الشيعية والقيام بدور إسلامي كامل، وعمل على عدم التفرقة بين المسلمين والتعاون مع الطوائف الأخرى، وحفظ وحدة لبنان واستقلاله.

7 - مع تصاعد الاعتداءات الإسرائيلية وتجاهل أهل الحكم بعد العام 1970م المطالب المحقّة للجنوبيين أسّس السيد موسى الصدر عام 1974م حركة المحرومين.

8 - سافر السيد الصدر في 1978/8/25م إلى ليبيا للاجتماع بالعقيد القذافي وقد شوهد في ليبيا آخر مرّة في ظهر يوم 1978/8/31م، وبعدها انقطعت أخباره.

13



الدرس الثالث عشر



الشيعة في مواجهة الاجتياح الصهيوني الكبير للبنان سنة 1982م



• أهداف الدرس •

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف تاريخ ولادة المقاومة الإسلامية في مواجهة الاحتلال الصهيونيّ.

2 - يفهم المعادلات الجديدة التي أرستها المقاومة في مواجهة الاحتلال.

3 - يدرك ردّة فعل الصهاينة وأعمالهم الإجرامية في مواجهة المقاومة.

مدخل

اجتاحت إسرائيل لبنان عام 1982م مخلّفة الكثير من الدمار والضحايا في مدنه وقراه وسط مباركة أميركية كاملة واكتفاء عربي ودولي بالتنديد. وكما حصل في آذار 78م كان التّبرير للاجتياح ضرب الفلسطينيين وأماكن تجمّعهم، مع فارق وحيد هو إصرار إسرائيل على توسيع رقعة الاحتلال وقيامها بعمليات إنزال عنيفة، استمرّت حتّى ساعات الفجر الأولى، مستهدفة منطقة الأوّلي عند حدود مدينة صيدا، وقبلها منطقة الزهراني وشواطىء صور وضواحيها[1].

المواجهة الخالدة

كان التيّار الثوريّ الإسلاميّ قد ترسّخ في لبنان بسبب وجود الأجواء الملائمة، وكانت التجربة الأولى على مشارف بيروت في منطقة خلدة حيث تصدّى الإسلاميون المؤمنون على الطريق الساحلي بين الناعمة وخلدة. وقد كرّرت القوّات الإسرائيلية محاولات الإنزال في منطقة خلدة أكثر من مرّة طوال يوم التاسع من حزيران عام 1982م إلّا أنّ جميع هذه المحاولات باءت بالفشل نتيجة المقاومة الشديدة التي جُوبهت بها من قبل القوات المشتركة (اتّحاد الطلبة المسلمين وشباب حركة أمل وبعض الشباب المؤمن الملتزم).

(1) حرب السادس من حزيران سنة 1982م تختلف عن حرب الخامس من حزيران سنة 1967م بشيء واحد فقط، هو الثمن الذي تدفعه إسرائيل على أبواب صور وعلى تخوم النبطية، من دمار لدباباتها، وقتل لجنودها وأسر لهم، ومن إسقاط لطائراتها، وأسر لطياريها وهو ما لم يحدث مطلقاً في حرب حزيران سنة 1967م.

وقد أنزلت إحدى البوارج الإسرائيلية ما بين 12 و 15 آلية ودبابة برمائية. ولدى وصول الآليات والدبابات إلى الطريق شنّت القوات المذكورة هجوماً صاعقاً عليها وواجهتها بقذائف الآر بي جي، والرشقات النارية الغزيرة، فاندفعت الآليات والدبّابات باتّجاه مدينة الزهراء وهناك كانت مجموعة من عناصر حركة أمل تنتظر الغزاة فأمطرتهم بوابل من القذائف والرصاص، فاندلعت النيران في ثلاث دبابات واحترقت مع من كان في داخلها من الجنود الإسرائيليين وامتدّت المعركة إلى أحد المباني المجاورة الذي هرب إليه جنود إسرائيليون كانوا قد تركوا آلياتهم ولاحقتهم عناصر القوات المشتركة «**المؤمنة**» إلى داخل المبنى وقضت عليهم.

وفي هذه الأثناء استولى المجاهدون على إحدى المدرّعات الصهيونية وأخرجوها من ميدان المعركة وجاؤوا بها إلى داخل بيروت (بئر العبد)، فيما راح الطيران الحربيّ الصهيونيّ يدكّ أرض المعركة بالصواريخ الثقيلة، فانهارت إحدى البنايات بكل طبقاتها بينما كان يتمترس بداخلها عدد من المجاهدين، فانتقلوا إلى جوار ربّهم شهداء أبرار.

سقوط نظرية أمن الجليل

وما إن وصل الحرس الثوريّ الإيرانيّ إلى بعلبك بعد الغزو الإسرائيلي، حتّى باشر بتدريب الجماهير المؤمنة، المسلّحة على فنون القتال والقيام بعمليات عسكرية جعلت مدن وقرى جبل عامل تتضامن مع هؤلاء المجاهدين، فنشطت العمليات والكمائن والهجمات ضد جيش الاحتلال الإسلائيلي.

وأدّى تصاعد المقاومة في المناطق التي يحتلّها الجيش الإسرائيلي في الجنوب إلى أن تذهب أهداف الغزو أدراج الرياح، فقد اضطرت أميركا إلى الهرب هي وحلفاؤها من

بيروت[1] للنجاة من العمليات، بعد تدمير مركز «**المارينز**» في بيروت ومركز المظليين الفرنسيين في بيروت.

ومع ارتفاع عدد القتلى والجرحى، ازداد الضغط الداخلي محذّراً من استمرار احتلال جنوب لبنان، فما كان من القادة الصهاينة إلا أن أنشؤوا (قوّات الشريط الحدودي) من العملاء والمأجورين ليكونوا سدّاً دفاعياً تتمترس من خلفه القوّات الإسرائيلية لتصبح في منجاة من العمليات للمقاومة العسكرية، وسقطت نظرية أمن الجليل.

وتبقى المقاومة في المواجهة

استطاعت المقاومة بإمكانياتها الذاتية المتواضعة أن تقهر الجيش (الذي لا يقهر)، وأن تربك جميع من كان في الطرف الآخر.

وأمام ملاحقة المجاهدين والعلماء العاملين، ورداً على تصاعد عمليات المقاومة الإسلامية في جبل عامل، قام عملاء الصهاينة باغتيال شيخ الشهداء الشيخ راغب حرب، وهاجمت قوّات أنطوان لحد بلدة سحمر في البقاع الغربي، وقتلت اثني عشر مسلماً من أبنائها وجرحت العشرات، وكذلك شهدت قرى ومدن جبل عامل مجازر رهيبة ومعارك دامية واعتقالات ومداهمات، وبالمقابل كانت العمليات الجهادية قائمة ليلاً نهاراً وفي كلّ مكان، وبدون أيّ كلل أو ملل، والمجاهدون غير آبهين بالأخطار.

وأمام صمود المقاتلين المسلمين وضراوة مقاومتهم وتصدّيهم، اتّخذت الحكومة الإسرائيلية في 14 كانون الثاني سنة 1985م قراراً بالانسحاب على مراحل، فكان ردّ

---

(1) **المارينز**: بقي «المارينز» في بيروت 18 شهراً أي من نهاية أيلول 1982 إلى شباط 1984. واستقبل الأميركيون بوصفهم المخلصين رسل السلام في البداية وخرجوا من بيروت بعد سلسلة وقائع كارثية على النحو التالي:
صباح يوم الأحد 1983/10/23، دمر انفجار هائل مقر «المارينز» بجوار مطار بيروت الدولي، وأسفر الانفجار عن مقتل 241 جندياً أميركياً وجرح نحو 112 شخصاً. وبالتزامن، دمر انفجار مماثل مقر قيادة كتيبة المظليين الفرنسيين العاملة في إطار المتعددة الجنسيات فقتل نحو 60 جندياً فرنسياً وذلك على مقربة من الانفجار الأول.
وهذا الحدث سيطبع السياسات الخارجية الأميركية بطابعه خصوصاً بعدما أعلنت منظمة «الجهاد الإسلامي» مسؤوليتها عن العملية التي ستضعها الدوائر الأميركية تحت عنوان: «الإرهاب الدولي» وستبقى أمامها ماثلة للعيان بوصفها أعظم كارثة تحل بالجيش الأميركي منذ الحرب العالمية الثانية بحيث انه لم يسبق أن سقط مثل هذا العدد من القتلى في حادث واحد. ولقد شكلت وزارة الدفاع الأميركية في 1983/11/7 لجنة من خمسة أعضاء للتحقيق في حادثة التفجير وانتهى تقرير اللجنة بعد تسعين يوماً وتضمن، من جملة ما تضمنه، مقدمات ومقومات عمل المتعددة الجنسية.

المقاومين المسلمين تصعيد العمليات العسكرية في كلّ مكان يوجد فيه الصهاينة، فأصيبوا بما يشبه الهستيريا، وفرضوا ما أسموه «**بالقبضة الحديدية**» وسرعان ما تحوّلت هذه القبضة الحديدية المزعومة إلى قبضة كرتونية أمام الخسائر الجسيمة التي كان الصهاينة قد مُنيوا بها ما أفقدهم صوابهم وباؤوا بالفشل، فانتقموا من حسينية معركة، التي كان يعتبرها العدو معقلاً من معاقل المجاهدين، وقد وضعوا عبوات ناسفة في أماكن مجهولة داخل الحسينية، ووقّتوها بالتنسيق مع عملائهم، فاستشهد عدد من المجاهدين الأبرار أمثال الشهداء: محمد سعد وخليل جرادي والحاج خليل عطوي وحسين شعيتلي، وغيرهم.

إجرام الصهاينة

عاد الصهاينة واجتاحوا حومين الفوقا والزرارية، وأرسلوا سيّارة مفخّخة إلى بئر العبد في بيروت، ذهب ضحيّتها أكثر من مئة شهيد وشهيدة، وعدد كبير من الجرحى. وكان ردّ المقاومة الإسلامية سريعاً، حيث اقتحم الشهيد أبو زينب[1] قافلة عسكرية

(1) «**الاستشهادي أبو زينب**» علامة فارقة في تاريخ المقاومة الإسلامية، وجندي مجهول في مسيرة الجهاد والمقاومة... ظلّ اسمه لغزاً حتى تحرير الأرض واندحار العدو الصهيوني.
«أبو زينب» هو اسم لاستشهاديين، كان يُفترض أن ينفذا عمليتين في وقت واحد، إحدى العمليتين تأخّرت من حيث الوقت، وكان قائدها الاستشهادي أحمد بشير الحسن، من مواليد برج البراجنة 1959م وكان يواكبه فيها الشهيد علي محمد سليمان من بلدة باتوليه. أثناء توجّههما لتنفيذ المهمة في 22 آذار 1985، حصل حادث لم نعرف حقيقته بالضبط، وانفجرت الشاحنة المليئة بالمتفجرات، واستشهد الأخوان الحسن وسليمان. (من كلمة للأمين العام في احتفال النصر في الخيام).
أبو زينب الثاني هو الشهيد عامر كلاكش، قائد عملية بوّابة المطلّة. قبل سنوات قليلة، تحرّر جزء من لغز «أبو زينب» الأول (أحمد الحسن)، حين خرجت صورته إلى العلن لتتصدّر الشارع الممتدّ من طريق المطار حتى تحويطة الغدير. تساءل الكثيرون: من هو هذا الشهيد الكبير الذي يحظى بهذا القدر من التكريم، وهو الذي كان مجهولاً باسمه وهويّة العملية التي نفّذها. حتى كان التحرير والنصر، فكشف الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله لغز الاستشهاديين «أبو زينب». وتشير والدته إلى «أنّ أحمد كان يتمتع بخلق رفيع، وكان مثال الشاب المؤمن والمتواضع... حتى أنّنا بعد شهادته اكتشفنا الكثير من الميزات التي كنّا نجهلها، ومنها عمله الإصلاحي والاجتماعي في محيطنا، وكثيرون جاؤوا يقولون: لقد عمل أحمد على حلّ مشاكلنا».
وكان الشاب أحمد الحسن قد خرج من منزله من دون أن يُعلم أحداً من أسرته وجهة سيره، كعادته في كتمان ما يحيط بأعمال المجاهدين، إلا شقيقه مصطفى الذي كان مستودع أسراره، فلم يقل أكثر من أنه سيتوجّه إلى الجنوب في عمل خاصّ لزيارة أصدقائه.
اختفى أحمد، ولم يعد أحد يسمع بأخباره، فخرج الأهل يبحثون عنه ووجهتهم الجنوب، لعلمهم بما يختزنه من عشق للجهاد والمقاومة. مرّت أيام وأسابيع حتى جاء من يعلمهم بشهادته خلال المواجهات مع العدو، من دون أي تفاصيل إضافية. وأقام الأهل «أسبوع الشهيد» وتبرّكوا بمقامه الجديد.

بسيارته المثقلة بالمواد الشديدة الانفجار قرب المطلّة على الحدود مع فلسطين، فسقط فيها ثمانون صهيونياً بين قتيل وجريح.

لم يجد الصهاينة بدّاً من الهرب، فهرعوا ينسحبون إلى ما يسمّى «**بالحزام الأمني**» وتحرّرت أكثر مناطق جبل عامل، واستطاعت أمّتنا المجاهدة أن تقضي على أسطورة الرعب بنهجها الحسيني، فقوّضت دعائم التفوّق والجيش الذي لا يقهر، وأصبحت قوّة لبنان بشبابه المجاهد المضحّي، وليست «**قوة لبنان في ضعفه**»، وحوّلت قبضته الحديدية المزعومة إلى قبضة ورقية رقيقة واهية.

المفاهيم الرئيسة

1 - اجتاحت إسرائيل لبنان مخلّفة الكثير من الدمار والضحايا في مدنه وقراه وسط مباركة أميركية كاملة واكتفاء عربيّ ودوليّ بالتنديد.

2 - الفرق بين حرب السادس من حزيران سنة 1982م وحرب الخامس من حزيران سنة 1967م هو الثمن الذي دفعته إسرائيل على أبواب صور وعلى تخوم النبطية.

3 - كان التيّار الثوري الإسلامي قد ترسّخ في لبنان بسبب وجود الأجواء الملائمة لذلك. وكانت الثورة الإسلامية الإيرانية قد أعطت تجربة رائعة في الاعتماد على الشعب في الثورة حتى الانتصار.

4 - وصل الحرس الثوري الإيراني إلى بعلبك بعد الغزو الإسرائيلي، وباشر بتدريب الجماهير المؤمنة، المسلحة على فنون القتال والقيام بعمليات عسكرية واستشهادية.

5 - أدّى تصاعد المقاومة في المناطق التي يحتلّها الجيش الإسرائيلي في الجنوب إلى أن تذهب أهداف الغزو أدراج الرياح.

6 - استطاعت المقاومة بإمكانياتها الذاتية المتواضعة أن تقهر الجيش (الذي لا يقهر)، وأن تُفشل المفاوضات، وأن تُربك النظام الطائفي.

7 - عاد الصهاينة واجتاحوا حومين الفوقا والزرارية، وأرسلوا سيّارة مفخخة إلى بئر العبد في بيروت، ذهب ضحيّتها أكثر من مئة شهيد وشهيدة، وعدد كبير من الجرحى.

8 - لم يجد الصهاينة بدّاً من الهرب، فهرعوا ينسحبون إلى ما يسمّى «بالحزام الأمني»، وتحرّرت أكثر مناطق جبل عامل.

14



الدرس الرابع عشر



الإمام روح اللّه الموسوي الخميني قدس سره ودوره في إحياء شيعة لبنان



أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف سيرة حياة الإمام الخميني قدس سره.

2 - يدرك الدور السياسي والجهادي للإمام الخميني قدس سره.

3 - يدرك دور الإمام الخميني قدس سره في إحياء شيعة لبنان.

سيرة الإمام الخميني قدس سره

ولد الإمام الخميني قدس سره عام 1320 للهجرة (1902/9/21م) بمدينة «**خُمين**» جنوب غربي «**طهران**». ولم تمضِ على ولادته ستة أشهر حتى استُشهد والده آية الله السيد مصطفى الموسوي على أيدي طغاة الحكومة آنذاك؛ وهكذا تجرّع الإمام الخميني قدس سره منذ صباه مرارة اليتم، وتعرّف على مفهوم الشهادة. وأمضى الإمام فترة طفولته وصباه تحت رعاية والدته المؤمنة السيدة «**هاجر**»، وفي سنّ الخامسة عشر، حُرِم الإمام من نعمة وجود هذين العزيزين.

- **الأسرة والأبناء**: اقترن الإمام الخميني قدس سره عام 1929م بكريمة المرحوم آية الله الحاج الميرزا محمد الثقفي الطهراني، فرزقا ثمانية أبناء، منهم: الشهيد آية الله السيد مصطفى الخميني، والسيدة «**فهيمة - زهراء مصطفوي**»، والمرحوم حجّة الإسلام والمسلمين السيد أحمد الخميني.
- **بساطة العيش**: إنّ أسلوب حياة الإمام الخميني قدس سره، وبساطة عيشه، ولكونها نابعة من معتقداته الدينية، بقيت ثابتةً لم تتغيّر في مختلف مراحل حياته، وطوال مسيرة جهاده السياسي الحافلة بالأحداث. فلقد دُهِش الصحفيون الأجانب ومراسلو وكالات الأنباء العالمية، الذين سُمح لهم بعد رحيل الإمام بزيارة محلّ إقامة سماحته، دُهِشوا لمشاهدتهم البيت المتواضع، ووسائل المعيشة البسيطة لقائد الثورة الإسلامية الكبير. وإنّ ما رأَوه لا يمكن مقارنته بأيّ وجه مع نمط حياة رؤساء البلدان والزعماء السياسيين والدينيين في عالم اليوم. إنّ أسلوب حياته وبساطة معيشته يعيدان إلى الأذهان الصورة التي كانت عليها حياة الأنبياء

والأولياء والصالحين. فمع أنّ الإمام الخميني قدس سره كان قد شارف على التسعين من عمره الشريف، إلاّ أنّه لم يتوانَ لحظة عن السعي في طريق رقيّ المجتمع الإسلامي، فإضافة إلى اطّلاعه اليومي على أهمّ أخبار وتقارير الصحافة الرسمية، وقراءة عشرات الملفّات الخبرية الخاصّة، والاستماع إلى أخبار الراديو والتلفزيون الإيراني، كان سماحة الإمام يؤمن بشدّة بالبرمجة والنظام والانضباط في الحياة، فقد كانت لديه ساعات معيّنة من الليل والنهار يتفرّغ فيها للعبادة والتهجّد وتلاوة القرآن. كما أنّ رياضة المشي، وفي ذاته ذكر اللّه والتأمّل والتدبّر، كانت جزءاً من برنامجه اليومي. كذلك كان سماحته حريصاً على اللقاء بطبقات الشعب، ولا سيما الطبقات المحرومة والمستضعفة، فحتى الأسابيع الأخيرة من عمره المبارك كان لديه كلّ أسبوع لقاء مع عوائل الشهداء.

- **الدراسة والتدريس**: درس سماحة الإمام في مدينة «**خُمين**» حتى سنّ التاسعة عشر مقدّمات العلوم الحوزوية، وفي عام 1339 للهجرة (1921م) التحق بالحوزة العلمية في مدينة «**آراك**»، وبعد أن مكث فيها عاماً، هاجر إلى مدينة «**قم**» لمواصلة الدراسة في حوزتها. وهناك اهتمّ بدراسة علم الرياضيات والهيئة والفلسفة. وحرص على المشاركة في دروس الأخلاق والعرفان النظري والعملي. وفي عام 1347 هـ (1929م) بدأ الإمام الخميني الراحل قدس سره التدريس، فدرّس بحوث الفلسفة الإسلامية، والعرفان النظري والعملي، وأصول الفقه.
- **الآثار والمؤلّفات**: ترك الإمام الخميني قدس سره عشرات الكتب والمصنّفات القيّمة في البحوث الأخلاقية والعرفانية والفقهية والأصولية والفلسفية والسياسية والاجتماعية، منها: شرح دعاء السحر، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، الحاشية على شرح فصوص الحكم، شرح الأربعين حديثاً، سرّ الصلاة (صلاة العارفين ومعراج السالكين)، آداب الصلاة، تحرير الوسيلة، كتاب البيع (خمسة أجزاء)، الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه، الجهاد الأكبر.

مراحل الجهاد والثورة

- **المواجهة الفكرية والعلمية**: ابتدأ الإمام الخمينيقدس سره جهاده في عنفوان شبابه، فمن خلال تأليفه ونشره لكتاب «**كشف الأسرار**» قام سماحته بفضح جرائم فترة العشرين عاماً من حكم رضا شاه - والد الشاه المخلوع -، وتولّى الرد على شبهات المنحرفين دفاعاً عن الإسلام وعلماء الدين.
- **المواجهة السياسية**: وانطلق الإمام الخمينيقدس سره في نضاله العلني ضدّ الشاه عام 1962م، وذلك حينما وقف بقوّة ضدّ لائحة «**مجالس الأقاليم والمدن**»، والتي كان محورها محاربة الإسلام، فالمصادقة على هذه اللائحة من قِبل الحكومة آنذاك كانت تعني حذف الإسلام كشرط في المرشّحين والناخبين، وكذلك القبول باستبدال اليمين الدستورية بالكتاب السماوي بدلاً من القرآن المجيد. وأدّت برقيّات التهديد التي بعث بها الإمام إلى رئيس الوزراء وقتئذٍ، وخطابات سماحته التي فضحت الحكومة، وبياناته القاصمة، وتأييد المراجع لمواقفه، إلى إلغاء اللائحة، وتراجع الشاه عن مواقفه.

ودفعت مواصلة النضال الشاه إلى مهاجمة المدرسة «الفيضية» بمدينة «قم» عام 1963م، وما هي إلاّ فترة وجيزة حتى انتشر خطاب سماحة الإمام وبياناته حول هذه الفاجعة في مختلف أنحاء إيران. وفي عصر العاشر من محرّم الحرام عام 1383 للهجرة (1993/6/3م) فضح الإمام الخمينيقدس سره عبر خطاب حماسي غاضب، العلاقات السرّية القائمة بين الشاه و«إسرائيل» ومصالحهما المشتركة.

- **الاعتقال**: وفي الساعة الثالثة من بعد منتصف ليل اليوم التالي، حاصرت القوّات الحكومية الخاصّة بيت الإمامقدس سره، وتمّ اعتقاله وإرساله مكبّلاً إلى «**طهران**». وبمجرّد أن سمعت الجماهير نبأ اعتقال الإمامقدس سره، نزلت إلى الشوارع منذ الساعات الأولى لفجر الخامس من حزيران 1963م، وراحت تعبّر عن استنكارها

لعمل الحكومة في تظاهرات حاشدة، أعظمها تظاهرة «**قم**» المقدّسة، التي هاجمتها قوّات النظام بالأسلحة الثقيلة، وكان نتيجتها سقوط العديد من المتظاهرين مضرّجين بدمائهم.

ومع إعلان نظام الشاه الأحكام العرفية في «طهران»، اشتدّ قمع تظاهرات أبناء الشعب في تلك الأيام، حيث قتلت وجرحت قوّات الحكومة العسكرية الآلاف من أبناء الشعب الأبرياء. وكانت مذبحة الخامس من حزيران 1963م. ونتيجة لضغط الرأي العام واعتراضات العلماء وأبناء الشعب في داخل البلاد وخارجها، اضطر إلى إطلاق سراح الإمام بعد عشرة أشهر تقريباً من المحاصرة والاعتقال.

واصل الإمام جهاده عبر خطاباته الفاضحة للنظام. وفي هذه الأثناء، تأتي مصادقة الحكومة على لائحة «الحصانة القضائية» التي تنصّ على منح المستشارين العسكريين والسياسيين الأميركيين الحصانة القضائية، لتثير غضب قائد الثورة وسخطه. فما أن يطّلع الإمام الخميني على هذه الخيانة حتى يبدأ تحرّكاته الواسعة، ويقوم بإرسال مبعوثيه إلى مختلف أنحاء إيران ليلقي سماحة الإمام خطابه الشهير آنذاك، دون أن يعبأ بتهديد النظام ووعيده. فانتقد لائحة الحصانة القضائية، وحمل بشدّة على الرئيس الأميركي وقتئذٍ.

- **نفي الإمام إلى تركيا**: أمّا نظام الشاه، فقد رأى أنّ الحلّ الأمثل يكمن في نفي الإمام إلى خارج إيران؛ فحاصرت القوّات الخاصّة والمظلّيون بيت الإمام، وذلك في سَحَر يوم الثالث من تشرين الثاني عام 1964م. وبعد اعتقال سماحته، اقتيد مباشرة إلى مطار «**مهر آباد**» بطهران، ومن هناك، وطبقاً للاتفاق المسبّق، تمّ نفيه إلى تركيا. وقامت قوّات الأمن الإيراني والتركي المكلّفة بمراقبة سماحة الإمام، بمنعه من ممارسة أيّ نشاط سياسي أو اجتماعي. استغرقت إقامة الإمام بتركيا أحد عشر شهراً. وخلال هذه الفترة، عمل نظام الشاه بقسوة لم يسبق لها مثيل على تصفية بقايا المقاومة في إيران.

مثّلت الإقامة الجبرية في تركيا فرصة اغتنمها الإمام في تدوين كتابه المهم «تحرير الوسيله»، حيث تطرّق لأوّل مرّة آنذاك في كتابه هذا - الذي يمثّل الرسالة العملية لسماحته - إلى الأحكام المتعلّقة بالجهاد، والدفاع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسائل المعاصرة.

- **نفي الإمام إلى العراق**: في يوم 1965/10/5 م يُنقَل سماحة الإمام برفقة ابنه السيد مصطفى، من تركيا إلى منفاه الثاني بالعراق، ليقيم في مدينة «**النجف الأشرف**». ومن منفاه في «**النجف**» كان يتابع بدّقة الأحداث السياسية التي تشهدها إيران والعالم الإسلامي، وكان حريصاً على إيجاد قنوات الاتّصال مع الثوريين في إيران، ومع عوائل شهداء انتفاضة الخامس من حزيران.
- **نفي الإمام إلى باريس**: وفي اللقاء الذي جمع وزيرَي خارجية إيران والعراق في نيويورك، قرّر الطرفان إخراج الإمام الخميني من العراق. وفي 1978/9/24م حاصرت القوّات البعثية منزل الإمام في «**النجف الأشرف**»، وأبلغت الإمام بأنّ مواصلة إقامته في العراق منوطة بإيقاف نشاطاته السياسية، والتخلّي عن النضال. وأصرّ الإمام على مواصلة نضاله، ولم يركن للضغوطات البعثية، ممّا دفعه إلى ترك «**النجف الأشرف**» في 1978/10/24م، بعد ثلاثة عشر عاماً من النفي، متوجّهاً إلى الكويت. إلاّ أنّ الحكومة الكويتية، وبطلب من نظام الشاه، منعت الإمام الخميني قدس سره من دخول أراضيها؛ فقرّر الهجرة إلى باريس. وصل سماحته باريس في 1978/10/6م، واستقرّ في «**نوفل لوشاتو**» في ضواحي باريس. وفي غضون ذلك، قام مبعوث قصر «**الإليزيه**» بإبلاغ الإمام طلب الرئيس الفرنسي «**جيسكار ديستان**»، بضرورة اجتناب أيّ نوع من النشاط السياسي، فكان ردّ الإمام حازماً، وأنّه لن يتخلّى عن أهدافه، حتى ولو اضطره ذلك إلى التنقل من مطار إلى آخر، ومن بلد إلى آخر.

ذروة الأحداث وانتصار الثورة الإسلامية

مثّلت شهادة آية الله السيد مصطفى الخميني (رضوان الله عليه) - الابن الأكبر للإمامقدس سره - في 1977/10/23م، ومراسم العزاء التي أقيمت في إيران، نقطة الانطلاق لانتفاضة الحوزات العلمية ثانية، وانتفاض المجتمع الإيراني المؤمن. وممّا يثير الحيرة والدهشة أنّ الإمام الخمينيقدس سره وصف هذا الحادث المؤلم بأنّه من الألطاف الإلهيّة الخفيّة.

وإنّ فترة الأربعة أشهر من إقامة الإمام في باريس، جعلت من «**نوفل لوشاتو**» أهمّ مصدر خبري عالمي، فقد أضحت حوارات الإمام ولقاءاته المختلفة مع حشود الزوّار الذين كانوا يتدفقون على «**نوفل لوشاتو**» من مختلف أنحاء العالم، سبباً في أن يتعرّف العالم أكثر فأكثر على أفكار الإمام وآرائه بشأن الحكومة الإسلامية والأهداف القادمة للثورة.

أمّا الشعب الإيراني، فقد صعّد من حدّة تظاهراته، مستلهماً توجيهات سماحة الإمام قدس سره ونتيجة لاتّساع رقعة الاضطرابات، شُلّت حركة المراكز والمؤسَّسات الحكومية؛ في هذه الأثناء، أعلن قائد الثورة الإسلامية للشعب عن تشكيل مجلس قيادة الثورة وتعيين أعضائه. وقرّر الشاه بدوره الخروج من البلاد في 1979/1/16م، تحت ذريعة المرض والحاجة إلى الراحة.

العودة المظفّرة وقيام الدولة: انصاع نظام الشاه لمطالب الشعب، وفتح مطار طهران، ليصل قائد الثورة الإسلامية إلى أرض الوطن في الأوّل من شباط عام 1979م، بعد أربعة عشر عاماً من النفي. و قدّر عدد المستقبلين ما بين أربعة ملايين إلى ستة ملايين شخص.

وأعلن قائد الثورة عن تشكيل الحكومة المؤقّتة، رغم وجود حكومة الشاه، والتي ما زالت تمارس مهامها. وفي 1979/2/5م، وبتعيين رئيس الوزراء، كُلّفت الحكومة

المؤقّتة بالتحضير لإجراء الاستفتاء العام وإقامة الانتخابات. وفي الثامن من شباط 1979م، بايع منتسبو القوّة الجويّة الإمام الخمينيقدس سره في محلّ إقامته بالمدرسة العلوية بطهران. وفي التاسع من شباط، وحيث توجّهت قوّات الحرس الشاهنشاهي الخاصّ إلى قمع انتفاضة منتسبي أهمّ قاعدة جوية بطهران، أخذ أبناء الشعب ينزلون إلى الشوارع لحماية القوّات الثورية. وفي العاشر من شباط عام 1979م، راحت مراكز الشرطة والمؤسّسات الحكومية تسقط الواحدة تلو الأخرى بأيدي أبناء الشعب. وفي فجر الحادي عشر من شباط 1979م، أشرقت شمس انتصار الثورة الإسلامية.

ولم يمضِ سوى شهرين على انتصار الثورة، حتى أعلن الشعب الإيراني، في واحدة من أكثر الانتخابات حرّيةً في تاريخ إيران، عن تأييده بنسبة 98.2 بالمئة لإقامة نظام الجمهورية الإسلامية في إيران. وتلا ذلك الانتخابات السياسية لتدوين الدستور والمصادقة عليه، وإقامة انتخابات الدورة الأولى لمجلس الشورى الإسلامي.

الرحيـــل

ومع أنّ الإمام الخمينيقدس سره كان يعاني من مرض القلب، وكان قد مكث فترة في مستشفى القلب بطهران عام 1979م، إلاّ أنّ سبب رحيله من هذه الدنيا الفانية كان مرض جهازه الهضمي، إذ أُجريت له عملية جراحية بناءً على نصائح الأطبّاء. وبعد عشرة أيام من معالجته في المستشفى، ودّع الإمامقدس سره هذه الدنيا الفانية في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة من مساء يوم السبت الثالث من حزيران عام 1989م، وشيّعت الملايين من النساء والرجال والشيوخ والشباب من مختلف أنحاء إيران، الجثمان الطاهر للقائد العظيم، بمشاعر من الحزن والألم التي لا توصف.

الإمام الخامنئي واستمرار المسيرة: وفي ظلّ غياب الإمام ورحيله إلى الرفيق الأعلى، ظهر نور مشرق بالأمل، أضاء على الأمّة كلّها. وكان بمثابة عزاء للأمّة في

مصابها، وهو سماحة آية اللّه العظمى السيد علي الخامنئي قدس سره، قائد الأمّة ووليّ أمرها، هو امتداد حقيقي للإمام الراحل قدس سره، لشخصية الإمام، ولفكر الإمام، ولخطّه الأصيل.

علاقة الإمام الخميني قدس سره باللبنانيين

برز في مجموعة من كلمات وبيانات الإمام الخميني قدس سره اهتمامه الشديد بهذا البلد بشكل عام، وبالشيعة بشكل خاصّ، نشير إلى بعضها هنا: ففي إحدى رسائله إلى اللبنانيين يقول:

إخوتنا،

بعد السلام والتحيّات.

إنّنا مهتمّون بأوضاع لبنان والمصائب النازلة بإخواننا فيه، ونأسف كلّ الأسف أن تجري هذه الأعمال الصهيونية اللاإنسانية بمساعدة أمريكا على المسلمين وشعب لبنان خاصّة، ودعاؤنا أن يمدّكم اللّه - تبارك وتعالى - بِمددِه أنتم وجميع الإخوان في هذا الموقع، وهو نصير المستضعفين والمظلومين، ونحن معكم في مواجهة إسرائيل وأمريكا، وأملنا أن يغلِب جيش الحقّ الجيوش الطاغوتية والشيطانية.

ومصائبكم وآلامكم ليست جديدة على الإسلام والمسلمين، فقوى الطاغوت كانت معارضة للإسلام ومكافحة له، ودعائي بنصرتكم وتوفيق كلّ المسلمين، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته[1].

روح اللّه الموسويّ الخميني.

ويقول الإمام قدس سره: وتؤكّد التحوّلات التي تشهدها الدول الإسلامية في شرق آسيا، انتصار الإسلاميين واتّساع نفوذهم. ولم يتمكّن الاستعمال المضلّل لمفردة (الأصولية) من الفتّ في العزم المتنامي للمدّ الإسلامي.

---

(1) صحيفة الإمام، ج9، ص 184.

ففي لبنان، التي كانت نشاطات الشيعة والجماعات الدينية والإسلامية إلى ما قبل انتصار الثورة الإسلامية، تقتصر فيها على المحافظة على عدد من المؤسّسات التعليمية والخيرية للتعبير عن وجودها، وكانت مجاهدتهم ومقاومتهم المظلومة تفقد بريقها في ظلّ الصخب والضجيج الذي تمارسه الأحزاب اليسارية واليمينية، باتت القوى الإسلامية اليوم لها الكلمة الفصل في السياسة الداخلية لهذا البلد وفي مواجهة الكيان الغاصب للقدس. وليس هذا فحسب، بل إنّ مواقف حزب الله اللبناني اكتسبت أبعاداً دولية بوصفه أكثر القوى السياسية والدينية اقتداراً في هذا البلد، وقاد ثبات أبنائه وإمضاؤهم إلى هزيمة المشاريع الأمريكية والصهيونية في المنطقة وإحباطها[1].

خطاب الإمام الخميني قدس سره الموجّه إلـى أهالي الضاحية الجنوبية

إنّ أوضاع لبنان المؤسفة والمصائب التي حلّت بإخوتنا في الإيمان، المظلومين في الضاحية الجنوبية، تبعث على التأثّر والتألّم. الآن، حيث تجتاح عشرات الآلاف من القوّات العسكرية لإسرائيل المجرمة - جرثومة الفساد - المدجّجة بالأسلحة والمدافع والدبّابات وحاملة الطائرات أراضي الجنوب اللبناني مركز إخوتنا في الإيمان، وتعمل على تشريد اللبنانيين المظلومين من منازلهم، وتخريب البيوت وإضرام النيران في المزارع، تقف الدول الإسلامية - في الغالب- غير مبالية بما يحدث من هذه الجرائم، بل تعمل أحياناً على دعمها منهمكة بالتحرّكات والمفاوضات العقيمة، تاركة المجاهدين الفلسطينيين الأبطال وحدهم يتصدّون لإسرائيل بكلّ شجاعة، ولعلّ ذلك تجسيد لمؤامرة حاكتها القوى الكبرى.

الآن، حيث يحترق إخوتنا وأبناؤهم المشرّدون بالنار، ويواجهون أخطاراً كثيرة ينبغي للمسلمين الخيّرين، ولا سيما أبناء إيران المحترمين، الذين هم سبّاقون إلى

(1) صحيفة الإمام ، ج1، ص 16.

الخيرات أن يهبّوا لنجدة المشرّدين العزل بأسرع وقت، وتقديم المساعدة لهم بكلّ وسيلة ممكنة، وأن لا يتوانوا عن تقديم كلّ أنواع الدعم والمساعدة المحترمة بوحي من إحساسهم بالمسؤولية بين أيدي الباري سبحانه وتعالى. وإذا أرادوا أن ينفقوا على المشرّدين والمهجّرين من سهم الإمام المبارك- عليه السلام- فبإمكانهم أن ينفقوا حدّ الثلث. كلّنا أمل أن يسعى زعماء الدول الإسلامية، ولا سيّما الدول العربية بوحدة الكلمة للتصدّي لإسرائيل- جرثومة الفساد- ودفعها للانسحاب، وإذا ما تسامحوا في ذلك، فإنّنا نخشى أن يحدث مثل هذا- لا سمح الله- لباقي البلدان. أسأل الله- تعالى- قطع أيدي الأجانب وعملائهم، وتحقيق استقلال الدول الإسلامية، والسلام على من اتّبع الهدى[1].

وقد أجاب على سؤال: (إنّ آخر سلسلة من العمليات العسكرية الإسرائيلية أدّت إلى احتلال أراضٍ عربية أُخرى؛ أي جنوب لبنان الذي يقطنه الشيعة... كيف تفكّرون بهذا الشأن؟)

الإمام الخميني قدس سره: لابدّ لأهالي الجنوب اللبناني من العودة إلى منازلهم بأيّة وسيلة كانت، وإنّ من واجبهم النضال لاسترجاع أراضيهم قبل أن يأتي الإسرائيليون، ويُقيموا المستوطنات.

الإمام قدس سره يطلب نصرة شيعة جبل عامل:

قال الإمام قدس سره: أنا شخصياً طلبت من الشعب الإيراني والشيعة في العالم أن يهبّوا لمساعدة إخوتهم في جنوب لبنان، وقد كان لهذه الدعوة نتائج ملموسة، غير أنّ الحكومات وحدها التي تمتلك الوسائل اللازمة بما يتناسب واحتياجات هذا الشعب، الحكومات وحدها التي بوسعها ممارسة الضغط على إسرائيل لإجبارها على الانسحاب من هذه الأراضي[2].

(1) روح الله الموسوي الخميني، صحيفة الإمام ج3، ص 326.
(2) صحيفة الإمام، ج5، ص 49.

توجيه الشكر إلى شيعة لبنان

أشكر الشعب المسلم الشيعي في جنوب لبنان الذي يناضل في سبيل استقلال بلاده وحرّيتها، ويدافع عن الشعب الفلسطيني المظلوم. أشكر له تضامنه مع الشعب الإيراني المسلم المظلوم في مظاهراته يوم تاسوعاء، وأتمنّى أن يواصلوا نضالهم بعزيمة قويّة لإسرائيل عدوة الإسلام والمسلمين، وأن يطردوا جميع المغتصبين والمستعمرين من بلادهم، ويختموا جميع أعمال التخريب والقتل والنهب بالتنسيق مع الحركة الإسلامية الأصيلة لإخوانهم المسلمين في إيران وفلسطين. أطلب من الله تعالى العزّة للإسلام والمسلمين، وأتمنّى أن تقطع أيدي الأجانب. تحية لكم يا جند الإسلام، وأتمنّى لكم التوفيق والسداد[1].

(1) صحيفة الإمام، ج5 ، ص127.



المفاهيم الرئيسة:

1 - ولد الإمام الخميني في 24 أيلول 1902م في عائلة من أهل العلم والهجرة والجهاد، في مدينته خمين. وفي عام 1921م توجّه الإمام الخميني إلى الحوزة العلمية في قم لدراسة العلوم الدينية.

2 - استثمر الإمام الخمينيقدس سره شهر المحرّم ليثير الشعب الإيراني ضدّ استبداد الشاه. ففي 3 حزيران 1963 ألقى الإمام كلمة تاريخية أشعلت الانتفاضة.

3 - تحرّك الشاه لإخماد الانتفاضة فألقى القبض على عدد كبير من أنصار الإمام. وفي ليلة 14 خرداد عند الثالثة بعد منتصف الليل ألقى القبض على الإمام، وهو في صلاة الليل ونفي بعد ذلك إلى خارج البلاد.

4 - في لقاء جمع وزيري خارجية إيران والعراق في نيويورك، تقرّر إخراج الإمام الخميني من العراق، تلا ذلك محاصرة بيت الإمام في النجف الأشرف وفي الرابع من تشرين الأول 1978 غادر الإمام نحو الحدود الكويتية.

5 - في شهر كانون الثاني 1979 شكّل الإمام الخميني شورى الثورة الإسلامية في إيران، أمّا الشاه فقد هرب في 1979/1/16.

6 - في أواخر كانون الثاني 1979 ذاع خبر عودة الإمام الخميني إلى إيران، وأرسل الإمام الخميني نداءاته للشعب الإيراني أنّه يرغب في أن يكون بجانب شعبه في هذه الأيّام العصيبة.

7 - وجّه الإمام الخمينيقدس سره عدّة رسائل وبيانات إلى شيعة لبنان، وطلب من الشعب الإيراني أكثر من مرّة مساعدتهم والدفاع عنهم.

8 - في عام 1989 أعدّ الإمام نفسه للقاء حبيب أنفق كل عمره في سبيل تحصيل مرضاته.

15



الدرس الخامس عشر




المقاومة الإسلامية بين عامي (1992 - 1996) الثبات والصمود

• أهداف الدرس •

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1 - يعرف ظروف استشهاد السيّد عبّاس الموسوي .

2 - يدرك آثار شهادة السيّد عبّاس الإيجابية على المقاومة والعمل المقاوم.

3 - يفهم دور مجاهدي المقاومة في صدّ عدوانَي 1993 و1996م.

المقاومة الإسلامية تصعّد المقاومة ضدّ الصهاينة

ظنّ الجيش الإسرائيلي بانسحابه عام 1985م من لبنان إلى داخل المنطقة اللبنانية التي اعتبرها حزاماً أمنياً أنّه سيحمي مدنه ومستوطناته، وأنّه سينعم بالراحة والاستقرار، ولكنّ المقاومين ظلّوا يلاحقون فلول جيشه وأماكن تجمّعاتهم، داخل الشريط الحدودي المحتلّ. وظنّ الصهاينة أنّ جيش العميل أنطوان لحد سيحميهم من الهجمات، لكنّ كثافة العمليات العسكرية والخسائر الجسيمة جعلت جيش العدوّ يفقد أعصابه؛ فقام بعدة عمليات انتقامية على المدنيين الآمنين في قراهم.

استشهاد السيد عباس الموسوي: كان الأمين العام لحزب الله السيّد عبّاس الموسوي[1] قد انطلق صبيحة السادس عشر من شباط عام 1992م إلى بلدة جبشيت

---

(1) ولد السيد عبّاس الموسوي عام 1952م في منطقة الشيّاح في الضاحية الجنوبية. وعاش طفولته في عائلة محافظة، وشبّ على معاينة مأساة الشعب الفلسطيني. خضع وهو لا يزال في العاشرة من عمره، لعدّة دورات تدريب عسكري. ثمّ التحق بحوزة السيد موسى الصدر في صور، وتعمّم في السادسة عشرة من عمره، بعد ذلك غادر إلى العراق ليتابع دراسته في كنف الشهيد المرجع السيد محمد باقر الصدر.
في نهايات السبعينيات من القرن الماضي تلك المرحلة العصيبة في كلّ من النجفِ وجنوب لبنان، ودّع العراق، بعد تسع سنوات قضاها هناك، وكان أوّل عمل قام به جمع طلاب العلوم الدينية الذين أبعدوا من النجف في حوزة، هي حوزة الإمام المنتظر عجّل الله فرجه الشريف، في مدينة بعلبك. وفي خضمّ الإحباط والهزيمة مع الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 82، أرسى وجمع قليل من رفاق الحوزة حالةٍ مخالفة تؤسّس للعمل الجهادي المقاوم لإسرائيل. وعندما بدأ الاجتياح الغاشم، غادر منزله في بعلبك متوجّهاً نحو بيروت ومنها إلى الجنوب عام 1985م، حيث استقرّ في مدينة صور، وكان يقضي وقته مع المقاومين ويتابع بشكل مباشر وميداني عمليات المقاومة ضدّ الاحتلال.
وتتويجاً لمسيرته، انتُخب السيد عباس الموسوي في أيار مايو 1991م أميناً عاماً لحزب الله، مفتتحاً مرحلة جديدة من مسيرة حزب الله، هي خدمة الناس إلى جانب استمرار عمل المقاومة، وعبارته الشهيرة «سنخدمكم بأشفار العيون» لا تزال أحد أبرز شعارات حزب الله حتى اليوم.
وفي السادس عشر من شباط فبراير 1992م، ومن جبشيت بلدة رفيقه الشيخ راغب حرب وبعد كلمة ألقاها في إحياء الذكرى الثامنة لاستشهاد الشيخ راغب، غادر نحو بيروت، لكن طائرات مروحية إسرائيلية تربّصت لموكبه على طريق بلدة تفاحتا وأطلقت صواريخ حرارية حارقة على سيارته، فاستشهد مع زوجته أم ياسر وولدهما الصغير حسين. ومن جبشيت إلى بيروت إلى النبيّ شيت طاف موكبه، واستحال مرقده مزاراً، وكنيته سيد شهداء المقاومة.

العاملية للاحتفال بالذكرى السنوية لشيخ شهداء المقاومة الشيخ راغب حرب. وبعد أن أنهى السيّد كلمته توجّه إلى بلدة الشرقية لزيارة مقبرة شهدائها، ثمّ انطلق عائداً نحو بيروت. وما إن خرج الموكب ليشرف على بلدة تفاحتا حتّى كانت ثلاث طائرات استطلاع للعدوّ تتبّع الموكب وتلاحقه، فيما كانت مروحيّتان من نوع «**كوبرا**» تكمنان للموكب، فأطلقت إحداهما صواريخ حرارية حارقة على سيارة السيد، فدمّرت السيارة واحترقت؛ وانتقل السيد وزوجته وابنه الصغير إلى جوار اللّه.

ردود الفعل - مواجهات كفرا - ياطر

علمت إسرائيل أنّ جريمتها لن تمرّ دون عقاب، فقامت باتّخاذ الإجراءات الأمنية المشدّدة، وأخذت تلوّح بالحرب على لبنان؛ فاستعدّت المقاومة وأعلنت حالة الاستنفار. وبالفعل، فقد التهبت محاور القرى المحاذية للشريط الحدودي المحتلّ، فردّت المقاومة بقصف المستعمرات بستين صاروخاً، فأوقفت قصف القرى من قبل جيش العدوّ إلى أن كان صباح 20 شباط 1992م حيث تقدّمت قوّة مؤلّلة نحو بلدتي ياطر وكفرا من جهة الشريط المحتلّ وعلى مشارف البلدتين، وتدخّلت المروحيّات وسلاح الطيران الحربي. ولكن المقاومين زادوا استبسالاً وصموداً، وبدأت جموع الشباب تنتقل بالمئات من بيروت والمناطق إلى أرض المعركة للمشاركة بالقتال. واستمرّت المعركة يوماً كاملاً، فيما حاول العدوّ يائساً أن يتقدّم لاحتلال بلدة ياطر من خلال إنزال جوّي، لكنّ محاولته باءت بالفشل. ودارت معارك ضارية على محور بلدة حاريص المجاورة، فلم يستطع العدوّ اختراق طوق المجاهدين الذين كانوا يلتفّون عليه من كل حدب وصوب، ومع حلول ليل ذلك اليوم كان العدوّ يتراجع وينسحب، وراح المقاومون يطاردونه ويلاحقونه، بعد أن فقد أكثر من خمسة عشر قتيلاً وعشرات الجرحى.

عدوان العام 1993م وعملية «تصفية الحسابات»

اعتبر العدوان الإسرائيلي الذي استهدف جنوب لبنان وطال البقاع الغربي والشمال وأطراف بيروت في شهر تموز 1993م الأعنف والأكثر همجيّة ضدّ المدنيين الأبرياء في تلك المرحلة، واستمرّ أسبوعاً كاملاً من صباح 25 حتى 31 تموز 1993م. وكان هدف العدوان ممارسة الضغط على لبنان للقبول بالشروط الإسرائيلية في مفاوضات واشنطن، وإنهاء المقاومة في الجنوب. وكان من أهمّ أهداف العدوان إيجاد شرخ بين المقاومة والشعب من جهة، وبين المقاومة والسلطة اللبنانية من جهة ثانية.

وعلى أثر عمليات ناجحة لرجال المقاومة في عمق الشريط المحتلّ، حشدت إسرائيل قوّاتها وآلياتها على طول الشريط المحتلّ، فيما ردّت المقاومة على هذه الحشود، بأن شنّ المجاهدون هجمات ضدّ مواقع الاحتلال والميليشيات العميلة له، وأوقعت قتلى وجرحى.

اعتداء 1993م

في صبيحة 1993/7/25م استهدفت قوّات الاحتلال أكثر من أربعين قرية في الجنوب والبقاع الغربي والمخيّمات الفلسطينية بقصف مدفعي عنيف وغارات جوّية، ما أدّى إلى نزوح كثيف للسكّان، وسقوط عشرات القتلى والجرحى. وفيما كانت المقاومة الإسلامية تتصدّى ببسالة كانت القوات الإسرائيلية ما تزال تزجّ إلى أرض المعركة المزيد من الجنود والدبّابات لرفع معنوّيات الجيش الإسرائيلي وسكّان المستعمرات. لكنّ كثافة إطلاق الصواريخ من رجال المقاومة على المستعمرات والمدن الإسرائيلية، اضطرت الحكومة الإسرائيلية إلى أن توافق على وقف إطلاق النار نتيجة اتّفاق تمّ التوصّل إليه بين الولايات المتّحدة الأميركية وسوريا وإسرائيل.

ورغم الدمار الذي أصاب القرى سرعان ما عاد السكّان معلنين تمسّكهم بأرضهم، وفشلت قوّات الاحتلال في تحقيق مآربها العدوانية.



عدوان العام 1996م أو عملية «عناقيد الغضب»

مقدّمات العدوان: أرادت إسرائيل أن توجّه رسائل أمنية إلى كلّ من حزب الله وسوريا وإيران، وأن تكرّس زعامة بيريز، مدعوماً من الولايات المتّحدة الأميركية ومؤتمر شرم الشيخ العالمي في مصر لدعم إسرائيل في تصفية المقاومة في لبنان.

الحشد العسكريّ الإسرائيليّ: حشدت - إسرائيل كما عوّدتنا في حروبها السابقة - آلتها العسكرية الجوية والبحرية والبرّية، وطاقاتها الاستخباراتية، وكلّ إمكاناتها الإعلامية والدعائية، واستنفرت كلّ حلفائها وأصدقائها لتشنّ حرباً على الأراضي اللبنانية متناسية فشل الاجتياحات السابقة.

وبالرغم من أنّ الساحة الجنوبية كانت هادئة نسبياً، فإنّ المقاومة الإسلامية ردّت على مقتل مدنيين في ياطر وشقراء، واعتبرت أنّ مقتلهم هو خرق لتفاهم أيار 1993م الذي ينصّ على عدم الاعتداء على المدنيين.

وكالعادة قامت إسرائيل بقصف القرى وتهجير سكّانها، وامتدّ القصف إلى بعض ضواحي بيروت الجنوبية وضربت البوارج الحربية حصاراً على الشواطئ اللبنانية بدءاً من الجنوب وصولاً إلى العاصمة. وتصدّت المقاومة بعنف أكبر وإصرار على الصمود. وهذه المرّة فشل العدوان أيضاً؛ فاندفعت إسرائيل كعادتها تقصف القرى والمدن والسكان الآمنين.

مجزرة قانا

ظنّ السكّان المدنيون في قانا وجوارها أنّ مركز قوّات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتّحدة هو مكان آمن ومحايد، فلجأ عدد كبير من الأهالي مع أطفالهم إلى مركز قيادة قوّات الطوارئ الدولية التابعة للكتيبة الفيجية في قانا، هرباً من القصف المدفعي والجوّي، ولمّا شعرت إسرائيل بفشل عمليتها العسكرية، إلى جانب تصدّي المقاومين ببسالة، أقدمت على الانتقام من المكان الذي كان يأوي إليه المدنيون داخل

مركز الأمم المتّحدة وقصفته بقذائف المدفعية الحارقة؛ فكانت مجزرة مروّعة ذهب ضحيتها مئة شهيد وشهيدان. وقد تفاخر الجنود الصهاينة الذين قصفوا المكان بحقدهم عندما قالوا: «**إنّ الذين قُتلوا ليسوا إلّا مجرّد «عرابوشيم»**» أي عُربان، وما الضرر في قتلهم؟ ونحن غير آسفين!».

نتائج العدوان

لم تستطع كلّ وسائل التدمير والعدوان أن تحقّق أهداف العدوّ، حيث أدّت إلى:

- خسارة بيريز لمنصبه وفشله في الانتخابات.
- تعزيز موقع المقاومة ودورها.
- تعزيز الوحدة الداخلية اللبنانية.
- إيجاد حركة سياسية ودبلوماسيّة ناشطة تأييداً للبنان ودعم سيادته واستقلاله.
- تمتين وحدة المسارين اللبناني والسوري.
- دعم لبنان مالياً واقتصادياً ومعنوياً وإعلامياً، عربياً ودولياً.
- استطاع لبنان خلق رأي عامّ عالمياً مسانداً وضاغطاً على إسرائيل لتطبيق القرارات الدولية.

تفاهم نيسان

كرّس العدوان تفاهماً في 26 نيسان 1996م، وهو الاتّفاق الخطيّ المعقود بين إسرائيل ولبنان بمشاركة سوريا، وتوقيع كلّ من الولايات المتّحدة وفرنسا، وهو ينصّ على حماية السكّان المدنيين على جانبي الحدود؛ الأمر الذي لجم إسرائيل عن التمادي في اعتداءاتها، ولم يقيّد هذا الاتّفاق حركة المقاومة، بل شرّعها، ولكن في العام 2000م وبعد تسديد المقاومة ضربات موجعة للاحتلال، حاولت إسرائيل التفلّت من الاتّفاق أو تعديله، ولمّا فشلت عادت قسراً.